المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التاسع بعد المئة

١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ — ١٦ محرم سنة ١٣٦٦

التعاليم اللاهوتية
في أصل الحيوان والانسان

في إحدى نوافذ كاتدرائية مدينة « أولم » نقش على الزجاج يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى ، يمثل فيه الواحد القهار منهمكاً في خلق الحيوانات ، وفي تلك الفترة بالذات خرج من بين يدي العناية القدسية « فيل » كامل الأوصاف ، وهو مثل بالدروع وعليه سرج وغطاء ، كأنه على أتم الأهبة للقتال .

ولقد وردت أمثال من هذه التصورات في مخطوطات علمية ، وفي الكتب المطبوعة القديمة ، وتجمعت كل هذه التصورات والآراء في نواة واحدة ، ظهر فيها الموز القدير مجدداً في تصوير أول إنسان من « سلسال كالصلصال » مبترءاً من جنبه ، بكل مشقة وذوة ، أول امرأة ظهرت في الوجود .

* * *

على أن هذه النظرة العامة في أسلوب الخلق قد انحدرت إلينا من خلال الأزمان القديمة ، حيث كانت قد ظهرت لابسة صوراً شتى من آراء كونية عتيقة مختلفة الصور والألوان . فأنت ترى حتى اليوم في المعابد المصرية القديمة بجزيرة « فيلة » و « دندرة » أمثالاً تريك كيف يجبل آلهة النيل كتلاً من الصلصال فتخرج من بين أيديهم رجالاً ، وكذلك تقع في الألواح الآشورية على مثل هذا العمل منسوباً إلى آلهة بابل حتى إذا انحدرت بك العنون إلى

عصرنا هذا ، وقلبت كتبنا المقدسة ، ألفيت أن هذه الآراء والتصورات بعينها ، قد اتخذت قاعدة لتطور جديد أصبغت ذيوله على اللاهوت الحديث .

* * *

مضى آباء الكنيسة قائلين بأن يكفوا على النص الحرفي الذي صيغت فيه أسطورتا الخلق المتناقضتين في سفر التكوين ، وبعد أن أفرغوا جعبة الجهد والبحث في سبيل التوفيق بين تينك الروايتين ، وأدمجوهما لتكونا هيئاً واحداً ، رضوا بأن يعتبروهما آخر محك للرأي ومجس للفكر في أصل الكون وكل ما فيه .

* * *

وفي بداية القرن الرابع الميلادي وضع « لاكتانتيوس » أول قاعدة لتلك الطريقة التي لم يقصد بها من شيء إلا إخضاع كل الأشياء الأخرى التي اتخذت وسيلة لدرس الخلق ومنشئه للنص الحرفي الذي جاء في الكتب المقدسة ، وأيّد فكرته في خلق الإنسان بإشارة لغوية قائلاً بأن آخر مخلوق خلق هو « الإنسان » لأنه صنع من الأرض Homo ex humo

وفي النصف الثاني من القرن الرابع بذاته أيّد القديس أمبروز St. Ambrose : أسلوب النص الحرفي الذي جاء في المئزن المقدسة خاصًّا بالخلق ، وهو ذلك الرجل الذي أعلن في كتابه الذي بحث فيه أصل الخلق — « إن موسى قد فعل ما فعله وصبَّ منه كل ما قال الله له ». ولكن رجلاً أعظم من هذين قد استطاع أن يربط هذه الفكرة باللاهوت النصراني وأن يوثّق لها منه . فإن القديس « أوغسطين » في كتابه « تعليقات على سفر التكوين » قد وضع في جملة واحدة قانوناً جامعاً ظلَّ للكنيسة دستوراً حتى عصرنا هذا ، إذ قال :

« لن نقبل منه شيء إلا إذا أيدته الكتب المقدسة بسلطانها ، لأن هذا السلطان أعظم من كل القوات التي يختص بها العقل الانساني » . . . على أن قوة السبك التي تأنسها في الجمل الأصلية ، قد جعلت أصداءها ترن خلال القرون المتعاقبة (١) .

وعلى الرغم من ذلك الانقلاب الكبير الذي أثاره القديس « أوغسطين » نفسه ، وتابعه فيه سلسلة من أعظم رجال الكنيسة محاولين أن يحوروا في الآراء التي سادت في أصل

(١) Major est Scripturde anctoritas quam omnis humani ingenii capacitas.

الكون ، فان قوله « أوغسطين » قد ظلت منشية على عقول الناس أمد القشاوة طوال القرون الوسطى .

أما « فنسنت برئيه » الدومينيكي ، وهو أكبر الانسيكلوبيديين ، فعلى الرغم من أنه مضى في كتابه « مرآة الطبيعة » يخرج آراءه استمدها من أرسطوطاليس ، بآراء أخذها من الانجيل ، فانه وقف يؤيد أول الروايتين اللتين وردتا في سفر التكوين ، وأظهر الفضائل العظمى التي يختص بها الرقم « ستة » ، ليتخذ ذلك سبيلاً الى القول بأن هذا هو السبب في أن كل الأشياء قد خلقت في ستة أيام .

* * *

وفي أواخر العصور الوسطى قبل العلامة الثبت الكردينال « دايلي » كل شيء جاء في الكتب المقدسة خاصاً بالخلق قبولاً حرفياً بلا تبديل أو تحوير . وانك لا تقع في خلال كل هذه العصور المتطاولة على نزعة الى انكار شيء من هذا ، اللهم إلا فيما كتب ثقة آخر من النقاة هو « غريغوري ريمني » : « Gregory Arimini » ، فقد ذكر في كتابه الذي خصه بالكلام في بدايات الأشياء ، بعد أن وضع فيه صورة من الخبر على الخشب مثلت الواحد القهار ينتزع حواء من جنب آدم ، كما مثلت كل الطبيعة المخلوقة في ظهرية اللوحة ، ما يظهره بمظهر القائم بفكرة القديس « أوغسطين » من الاعتقاد بوجود مادة سبقت بالوجود الخلق في الزمان .

وفي عصر الاصلاح الديني ولج « لوثر » بسلطانه العظيم ذلك الميدان مؤيداً فكرة قبول النصوص الحرفية التي جاءت في الكتب المقدسة ، واعتبارها النبع الأوحد لكل العلوم الطبيعية . ولقد رفض كل التفسيرات المجازية أو التصوفية التي قال بها متقدمو اللاهوتيين قائلاً :

« لماذا يلجأ موسى إلى المجاز بينما هو يتكلم في مخلوقات حقيقية أو عالم منظور يمكن أن يرى وأن يلمس وان يدرك ؟ ان موسى إنما دعى الأشياء بأسمائها الحقيقية ، كما يجب علينا أن نفعل . وإني أعتقد ان الحيوانات قد وجدت دفعة واحدة في عالم الله ، كما وجدت الأسماك في جوف البحار » .

ولم يكن تحدث « كالان » بفكرة النصر المزعوم لرواية الخلق في سفر التكوين ، بأقل من تشدد « لوثر » . ولقد أنكر الدين يتمسكون على الاعتقاد بوجهة من النظر تخالف ما يذهب اليه ، بأنهم بذلك إنما ... « يسيئون الخلق ، وانهم يكونون على تغيير في من قاض عادل ينسفهم نسفاً » .

ولقد سمعي معتقداً بأن كل أنواع الحيوان قد خلقت في ستة أيام كل منها ليل ونهار ، وانه لم يظهر منذ ذلك العهد أي نوع جديد على اطلاق القول . وقال بأن الطيور قد استحدثت في الماء ، ذاكراً أن هذا القول تجيزه بعض نصوص من الكتب المقدسة . ولكنه يضيف الى ذلك :

« انه اذا كان لا بد من أن يجاب على هذا السؤال من ناحية القواعد الموسيقية ، فأنت تعرف أن الماء أكثر قرباً للهواء منه للأرض » (١)

وعلل بعض الصعاب التي واجهته في ترجمة ظاهر رواية الخلق كما وضعت في الكتب المقدسة بقوله ان الله : « رغب بتلك الصعوبات أن يبرهن لنا على قوته وسلطانه ، فأفرغ علينا الدهشة والعجب » .

* * *

ولقد تشبثت بهذه الفكرة كل العقول القذة في الكنيسة الرومانية . وفي القرن السابع عشر أصبغ « بوسيه Bossuet » عليها من سناء عقله الكبير أنواراً كشفت أبهى الحلل . في كتابه « بحوث في التاريخ العام » ، ذلك الكتاب الذي ظل القاعدة الأساسية ، لا لتعاليم اللاهوت وحدها ، بل لكل التعاليم التاريخية في فرنسا حتى عصر الجمهورية الأخيرة (الثالثة) نجده وقد عمد الى تنبيه الأذهان الى ما يعتبره آخر ما نزل به الوحي من حقيقة الخلق ، مؤيداً القول الخرفي بأن الأرض لم تخلق الا للانسان — « وان يد الله هي التي تحفظ على المادة القابلة للتوضي نظامها المحكم المرسوم » .

(للبحث بقية)

---

(١) الغرض من ذلك أن الماء ما دام أقرب الى الهواء منه إلى الارض ، والطيور سكنها الهواء ، اذن فهي مخلوقة من الماء .

تحقيق ولادة النبي
صلى الله عليه وسلم (١)

بيان حشاد الفلكي

﴿ مقدمة ﴾ — إختلف المؤرخون والمؤلفون في تصحيح ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخطأوا خطأ ظاهراً. وأخطاؤهم هذه جعلت الناس لا يعتقدون لهم هذه الأخطاء.

لان تاريخ ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر واضح كوضوح الشمس في رائعة النهار ولكن هؤلاء المؤلفون والمؤرخون لم يقتبسوا قبساً من نور فيستضيئون به في بحوثهم وتحقيقاتهم العلمية أو التاريخية. فلذلك ، لما الطريق ، فوقعوا في هذه الاخطاء فالهم عذرك

﴿ حجة الوداع ﴾ — ان أظهر يوم في حياة النبي هي حجة الوداع وقد كانت في السنة العاشرة بلا خلاف فيها وكان يوم عرفتها تاسع ذي الحجة يوم الجمعة (٦ من مارس سنة ٦٣٢ م) وهذا لان أول شهر ذي الحجة كان يوم الخميس بالحساب وبالرؤية ولا يوجد خلاف في ذلك وهو يوافق (٢٧ من فبراير سنة ٦٣٢ م).

هذا اجماع من كل الامة وقد نص على هذا النبي صلوات الله عليه وسلم في خطبته فقال ما معناه (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم) اي ان التاريخ صحيحاً من دوران الافلاك التي تقتبس منها مقاييس التاريخ والحساب ، فالرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم قد وضع الاساس وعلينا أن نبني عليه الحساب والتاريخ . وعلى هذا النظام السالف الذكر كان أول السنة الحادية عشر من الهجرة يوم السبت (٢٨ من مارس سنة ٦٣٢ م) بحكم الرؤية والحساب أيضاً لان السنة العاشرة على اصطلاح أهل الحساب كبيسة فيكون شهر ذي الحجة ٣٠ يوماً ويدخل صفر الخير يوم الاثنين (٢٧ من ابريل سنة ٦٣٢ م) وأول ربيع الاول يوم الثلاثاء وبالرؤية في أفق المدينة المنورة يوم الاربع (٢٧ من مايو سنة ٦٣٢ م) فكانت مدة أيام صفر

﴿ تاريخ وفاة النبي ﴾ — وجاء في الجزء الثالث من السيرة الحلبية حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في حجر عائشة . وذلك في يوم الاثنين حين زاغت الشمس لإثنى عشر

(١) الصحيح في تاريخ ميلاده هو يوم ٩ ربيع الاول وليس يوم ١٢

ليلة خلت من ربيع الأول. هكذا ذكر بعضهم وقال السهيلي (لا يصح أن يكون وفاته يوم الاثنين الا في ثالث عشرة أو رابع عشرة لاجماع المسلمين.

فثالث عشرة الذي ذكره السهيلي هو في الحقيقة على الرؤية وأما رابع عشرة فهو بالحساب الاصطلاحي . مما تقدم تبين لنا أن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ و ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) وهذا ثبت بالتحقيق ولا خلاف في ذلك

﴿تاريخ الميلاد العربي﴾ : ومما هو معروف واتفق عليه الأكثرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاش ثلاثاً وستين سنة قمرية تامة وأن مولده كان في شهر ربيع الأول في يوم الاثنين وكان ربيع الأول سنة المولد يوم الأحد فيكون مولد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول بالتحقيق وليس ١٢ لأن يوم ١٢ يوافق يوم خميس — ولكن المشهور كما ورد أن مولد النبي يوم الاثنين ويوم الاثنين هذا بالتحقيق هو ٩ من ربيع الأول .

﴿عمر النبي بالأيام﴾ : حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش ٦٣ سنة قمرية تامة فيكون مبدؤها من يوم ٩ من ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة لغاية ٨ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية وتكون الأيام الزائدة عن ٦٣ سنة قمرية هي خمسة أيام وهي أيام ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ . فاذا حولنا عدد الـ ٦٣ سنة قمرية وهي مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم الى أيام بأن ضربنا عدد السنين البسيطة في ٣٥٤ يوماً وعدد السنين الكبيسة في ٣٥٥ يوماً وأضفنا الخمسة أيام الزائدة لكان الحاصل ٢٢٣٣١ يوماً وهي مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأيام .

﴿تاريخ الميلاد الافرنجي﴾ : مما تقدم تبين لنا أن مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأيام ٢٢٣٣١ يوماً فهذا المقدار يوازي بالضبط ٦١ سنة شمسية و ٥٠ يوماً بالدقة والحساب فاذا تقهقرنا الى الوراء من يوم (٨ من يونيه سنة ٦٣٢ م) وهو تاريخ الوفاة بالتحقيق بمقدار ٦١ سنة شمسية و ٥٠ يوماً لكان اليوم الذي نصل إليه هو يوم (الاثنين ٢٠ من ابريل سنة ٥٧١ م) وهو تاريخ ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بغاية الدقة .

﴿مرسوم ملكي﴾ : لذلك نطلب من حكومتنا الرشيدة العمل على إصدار مرسوم ملكي بجعل الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة ٩ من ربيع الأول وليس ليلة ١٢ من ربيع الأول . وبهذا العمل الجليل تكون مصر وهي زعيمة العالم الاسلامي وحاملة فنار العلم ولواء الوحدة العربية قد حققت أعظم وأجل درة في الشعائر الاسلامية في أزهى العصور وهو عصر الفاروق أطال الله في عمره وحقق للاسلام والمسلمين في عهده كل خير وفلاح .

محمد المقصود حماد الفلكي

تجربة جديدة
في ألياف الرامي

وصفت نبات الرامي في مقال ضافٍ نُشر في مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦ ثم قرأت نبذة عليه ، وذلك في أحدث ما ورد عليَّ من المجلات الانكليزية العلمية فآثرت نقلها الى قرائنا لكيلا تفوتهم فوائدها : —

الرامي نبات ابقي ، شرقي الأصل ، عجيب النفع ، وقد ورد ذكرهُ في الرسالة الزراعية الصينية الامبراطورية التي نشرت في بلاد الصين في سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد المسيحي . وصحرب زرعه ثم تقشيره تجربة أخرى في مستنقعات اقليم فلوريدا . وذلك في بضعة الأشهر القادمة ، حيث تقوم شركتنا شركة الولايات المتحدة الأميركية ، وصناعات فيبورت في مدينة بنساكولا في فلوريدا بإنشاء مصنع لتقشير الرامي الذي ينتج هناك من ألف فدان زرعت أولاً لهذا القصد . وستزاد هذه المساحة أخيراً الى ألفي فدان . وهاتيك الأطيان عدا خمسة آلاف فدان ابتاعتها شركة فلوريدا الخامسة بمنتجات الرامي ، وذلك من مستنقعات الاقليم السابق الذكر ، فصد زراعتها راصاً .

* * *

ولا غرو فان نبتة الرامي صالحة لنسج الثياب الجذّابة المتينة ، وأثاثات البيوت ، والسيور المتينة التي تستعمل لادارة الآلات ، . هذا عدا منسوجاته التي تتشرب موادّ الصباغ تشرباً جيّداً ولا تتكش ولا تبلى إلاّ بعد زمن مديد . والرامي ضعر نباتي مثل القنّب أو الكتّان أي انه ينتج من سيقان النبات لا من زهره ، على نقيض القطن . أما السيقان فتحتوي على جبّار أو مخاخ أبيض ليّن . وبلي النخاع خشب رفيع هو حامل النبات . ثم قشره الداخلي وهو مملوء بالألياف المقرونة بمادة صمغية مستحصية وفوق هاتيك العناصر يوجد القشر الخارجي وهو رفيع جدًّا ، ملتصق بسائر الأجزاء التصاقاً محكماً .

ومن دأب أهل الصين عند حصد محصول الرامي من نباته تجريده من لحائه أي قشوره

الخارجية والداخلية الحشرية عن الألياف بتمريرها بين [illegible] وما يصحبه من المادة الخضراء، من حاتيك الألياف تقشيراً بالأيدي [illegible] أو الامتداد بالمادة.

وقد اخترعت آلات كثيرة لتقشير الراميه وأجودها التي الآن، ما أنتجته مصانع كروب في المانيا وهي الآلات عينها التي استخدمها البلجيكيون من هناك إلى جزائر الفيليبين حيث استخدموها في أقليم دلتاو [illegible] وقد تم ذلك في أوائل سنة ١٩٣٠ وما بعدها، فنجحت في تقشير القنب والرامي كليهما.

وبلغ محصول الرامي في الفيليبين في الأشهر الثمانية الأولى من سنة ١٩٣٩، مليونين ونصف مليون رطل، فاستوردت بلاد بريطانيا العظمى ثلاثة أرباع تلك الكمية واستوردت بلاد الولايات المتحدة الأميركية سائرها.

* * *

ويعتقد بعض العلماء المتخصصين في دراسة الرامي أنه ما دام شعر الرامي يحسن نزعه عند ما يكون النبات غضًّا، فالأفضل لغرض تقشيره استخدام الآلات الصغيرة المقشرة التي يتاح نقلها من مزرعة إلى أخرى. أجل أن الآلة الصغيرة إنما تستطيع تقشير كمية محدودة من الألياف، قد لا تزيد على مائة رطل في اليوم. أما الشراح الزراعيون فيؤيدون الوسائل الاجمالية إذ يرون عكس ذلك ويؤثرون حصد الرامي بالآلات الحصّادة العصرية ثم نقله جملة إلى مصانع التقشير. وحجتهم في ذلك أنه ما دام الفدان ينتج ثلاثين طنًّا من نبات الرامي في السنة، يستخرج منها طن واحد من شعره، فلا بدَّ من إقامة مصانع التقشير أقرب ما يمكن إلى المزارع، بغية إقلال نفقات النقل الى أقل درجة لأن الحصّادة الحديثة يمكنها حصد عشرين فداناً في اليوم من محصول الرامي لكي يتسنّى نقل الحصيد على عجل الى مصنع فلوريدا. وعند ما يتم تقشير الرامي يكون شعره ثقيلاً مائلاً الى الاصفرار مشفوعاً بكمية كبيرة من الصمغ اللاصق به. فيغدو حينئذٍ أصلح ما يكون لصنع الدوبارة وحبال السفن وحبال قنوع السفن والزينات وشباك صيد السمك وحبال ربط قاطرات البواخر. أما شعر الرامي الذي تنسج منه المنسوجات فيمتهر أولاً من صمغه.

عوض مبرز

معجزة

في عالم الجراحة

الروس في مجال العلم مكان ملحوظ . فقد كانوا في العهد القيصري كما هم في العصر الشيوعي من مقدمي الباحثين ذوي السبق في مجال الطب والهندسة والجراحة وعلم النفس .

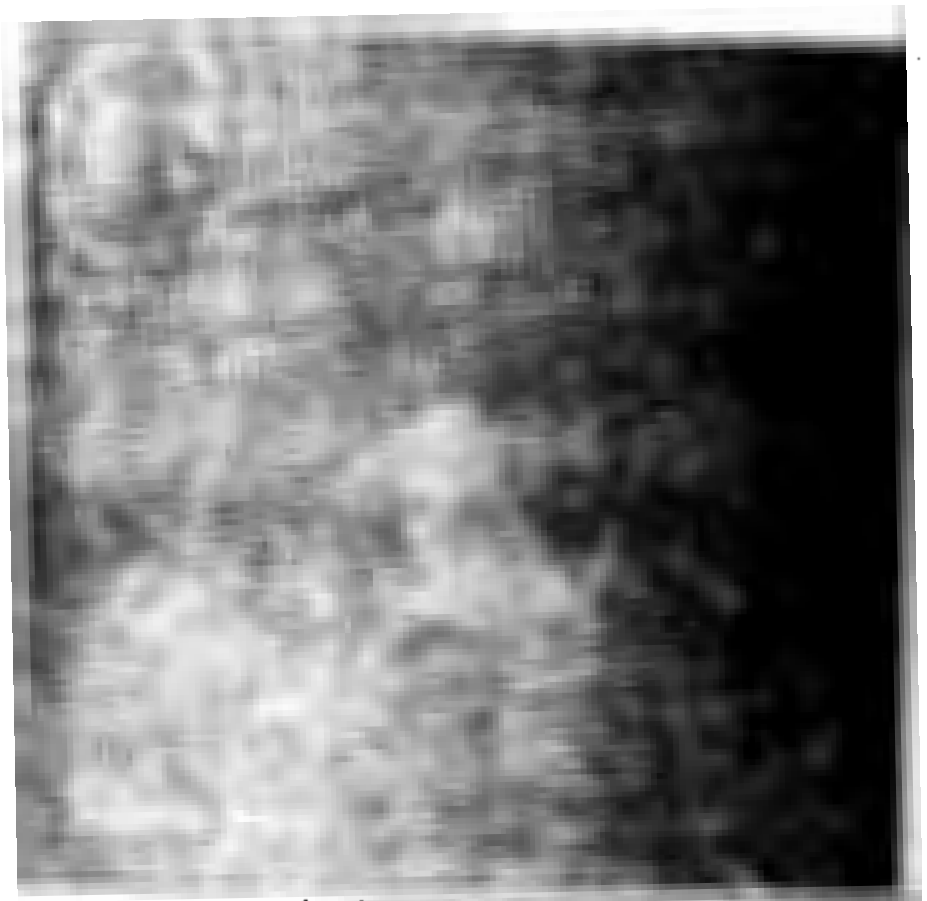

قلب انسان ميت انتزع من جثته بعد أن مضى على موته أربعة أيام ، ثم أخذ ينبض ثانية عند ما هيء له ذلك الجهاز المعقد من الانابيب والمحركات وهو يغذي بسائل مركب تركيباً خاصاً ، وقد بقي قابضاً اثنتي عشرة ساعة . وهنا دكتور « سرجي ڤريبف » ينظر اليه بانتباه العالم المدقق في مستشفى بوتكين بموسكو

وفي الشتاء الماضي ، وفي مدينة خوركي ، استطاع العالم الروسي « بيتر ولاي ستزف »

Nicolai Sinitzyn أن يقطع قلب ضفدع حيّ ويستبدل به آخر . وعاش الضفدع

وبعد وقوع هذه التجربة بأشهر قلائل . وفي موسكو ، أخذ العالم « سرغي اندرييف » Sergei Andreyev قلباً بشرياً من جثة بعد أن وقع ميتاً الموت بعثة صغيرة ، واستطاع أن يجعل هذا القلب ينبض نصف يوم . فقد أمضى الوظائفيون (الفزيولوجيون) : Physiologists سنين عديدة يحاولون إجراء تجارب على القلب ، وهو أول أعضاء الجسم الرئيسية . فاستطاعوا أن يحتفظوا بقلوب الكلاب نابضة بعد الموت ، كما أمكنهم أن يبقوا قلوباً اضافية الى قلوب الحيوانات من ذوات الحرارة الثابتة ومن ذوات الحرارة المتغيرة .

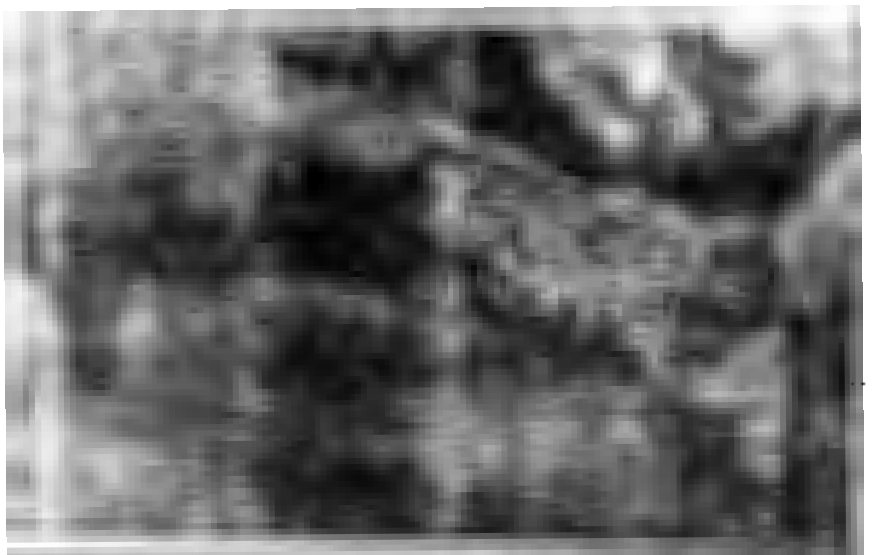

هكذا تبدأ العملية الجراحية في ضفدع يطرح على ظهره فوق منصدة ويثبت فكه الاسفل بمقبض ليتمكن الدكتور سينتزن ان يجري تجربته من خلال فمه الواسع

واستطراداً نقول أن الحيوانات ذوات الحرارة الثابتة هي التي يسميها البعض خطأً « ذوات الدم الحار » Warm-blooded = Homoiothermals وذوات الحرارة المتغيرة هي التي يسميها البعض خطأً ذوات الدم البارد : Cold-blooded = Poikelothermals فكما تبين استطاعوا أن يفعلوا ذلك بحيوانات يصلها بالإنسان صفة ثبات الحرارة ، وحيوانات أخرى كالأفاعي والضفادع وغيرها .

في عصرنا هذا تخطت هذه التجارب الحد الذي وقفت عنده من قبل . والتجارب التي قام بها سينتزن واندرييف تجارب مستقلة بعضها عن بعض ، ولكن قد يتضح فيما بعد أن بينها علاقات خفية تساعد المتقدمين من الاطلاع على متابعة البحث .

على أن العالمان الروسيان لا يقولان بأن استبدال القلب بغيره ممكن في الانسان ، فإن الصعوبات التي تعترض استبدال القلب البشري بغيره مختلفة تمام الاختلاف عن تجارب

دكتور سينتزن ينتزع القلب من جوف الضفدع . والمعروف ان الحيوانات المتغيرة الحرارة أكثر احتمالا لعمليات العمليات الخطيرة من غيرها

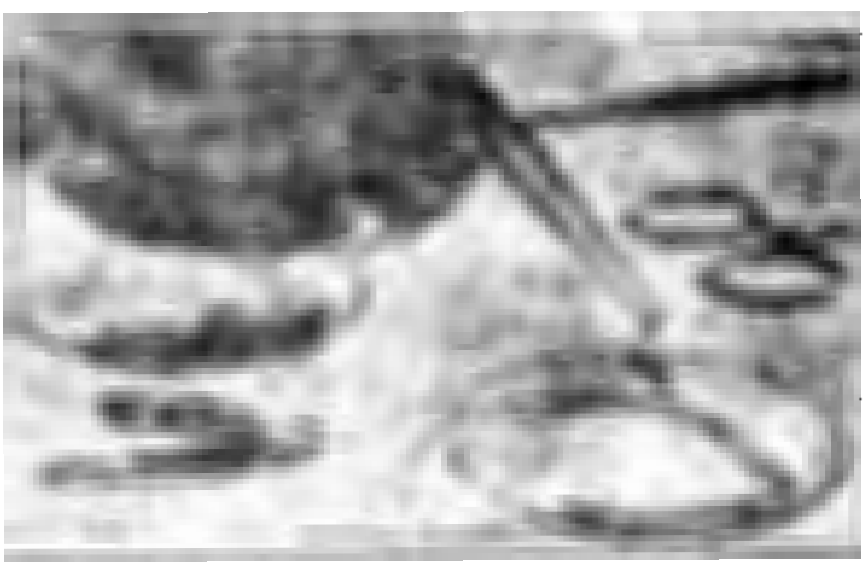

قلب ضفدع آخر يلتقطه سينتزن بمجرد أن يلقي بالقلب الذي انتزعه في الدهن الذي إلى يسار الصورة . وفي هذه الفترة القصيرة يظل جثمان الضفدع بغير قلب

سينترن في الضفادع . ويمكن أن يكون في هذه التجارب دليل أولية من فكرة أو أسلوب أو طريقة يمكن بها استبدال القلب الضعيف أو مريض بقلب قوي سليم .

قلب جديد يطير من طريق الفم إلى جيث يلتقه دكتور سينترن بطريقة خاصة تمكنه من اتمام العملية بأكملها في زمن يتراوح بين عشرين وثلاثين ثانية

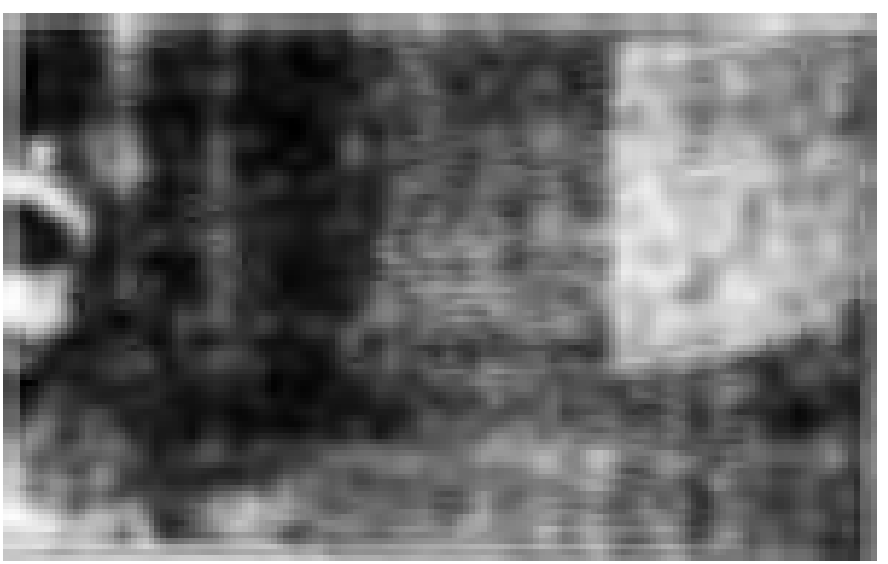

بعد دقيقتين من إجراء العملية التي لم تترك أي أثر ظاهر في الجسم ، يرى الضفدع مستويا ف[illegible] الأعلى ، ثم يفقد قفزاته العادية ، والراجح أن يعيش عدة أشهر

الكيمياء عند العرب

وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي

حدثتكم في بحثي السابق عن جابر بن حيان ، وأخبرتكم أن أكثر أعماله قد ترجمت في القرون المتوسطة الى اللغة اللاتينية : ولقد قيل عن بعض أعماله أنها أحسنُ ما صنعت يدُ الانسان في الآداب الكيمياوية القديمة . ومن هذه الجامع الأعظم ، وكتاب الاستتمام ، وكتاب التنافير . ولكن — ويا للأسف — لم تكتشف بعدُ هذه الكتب في اللغة العربية ، ولذا نرى بعض علماء الافرنج يشكون في نسبتها لجابر ، إلاّ أن البعض منهم متأكدٌ من أنها من أعماله رغماً عمّا غيّر فيها المترجمون والمؤلفون : ولكي نتحقق هذا القول يجب علينا أن نبحث بكل جد ونشاط عن هذه الاعمال في اللغة العربية . وإن هذا العمل لمن أكبر الأعمال في تاريخ الكيمياء ، فيجب علينا نحن العرب أن نحُلّ هذه المعضلة قبل أبناء الغرب لأن في مكاتبنا الألوف من الكتب المطبوعة والمخطوطة التي لا يعرف عنها علماء الغرب شيئاً . فاذا بحثنا البحث الطويل فإننا سنجد اكتشافات هامة ، ولربما عثرنا على كتب جابر التي ذكرتها آنفاً : وبهذا العمل نقوم بخدمة كبيرة نحو تاريخ علم الكيمياء ، ولنظهر للعالم فضلَ العرب ، ولنساعد على تثبيت الشرف الذي استحقه جابر بن حيان على أعماله الكبيرة الكثيرة .

وبَعْدَ جابر بن حيان تتجه أفكارنا نحو الطبيب الماهر والكيمياوي الكبير أبي بكر محمد بن زكريا الرازي الذي توفي عام ٣٤١ للهجرة وجُلّ ما يُعرف عن هذا العظيم أنه كان معواناً ذكيًّا وكريماً سخيًّا فإنه أدّى الصدقات للفقراء ، وما كان يأخذ شيئاً مُقابلَ تطبيبه المرضى : وإن هذه الشهرة التي اشتهر بها قد جذبت إليه قلوب جميع طلاب المسلمين من أنحاء العالم : ولقد عرفوه طبيباً ماهراً كما عرفوه كيماويًّا كبيراً ، إلاّ أنه لم يهتمّ بالنظريات الكيمياوية وقد صرف جهده في تحضير وتطوير المواد الكيمياوية لاستعمالها

في الطب ، وكتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع : وهي كتب قيمة جميلة ، مرتبة ترتيباً منطقيًّا تصف الأشياء جيداً . وكذلك طريقة تصنيفها جيدة جدًّا .

لقد أخرج بعد تعب كبير ، وعمل طويل أحدُ علماء العرب مؤلفاً ضخماً فيه ترجمة وشروحُ أعمال الرازي الكيمياوية وهو كتاب سر الأسرار . وكان عمل هذا الأستاذ كبيراً جدًّا لأنه جعل الأوربيين يراسلون ويتتبعون تقدم الكيمياء عند العرب : فالعرب مدينون لهذا الأستاذ على عمله المجيد وكذلك لن ينسى العرب الأستاذ قدوماي ولا المسيو برتلو ولا الأستاذ أهيلان في الهند فهؤلاء الثلاثة خدموا العرب خدمات جمة ونشروا الكثير من علومهم .

ولما توفي الرازي قام ابن سينا ، فيلسوف الاسلام ، وكان لا يعتقد في امكان تحويل المعادن ولم يتردد في التعبير عن آرائه بكل قواه ، وإن انتقاده هذه النظرية التي كانت مقبولة أفاد كل الإفادة ، ومع أن أكثر الكيمياويين لم يصدقوا ابن سينا فقد أخذوا يفكرون في موقفهم تجاهه واغتنموا أكثر من قبل وحاولوا أن يأتوا بالبراهين الجديدة ليثبتوا آراءهم ونظرياتهم ولذلك نقول إنه كان لانتقاد ابن سينا قيمة ، وساعد علماء العرب على الجد والعمل ، في هذا الوقت تأصل علم الكيمياء في الاندلس وظهور الرياضيون والفلكيون والأطباء والفلاسفة والكيمياويون الكبار وتقدم العقل البشري وانتقال العلم الطبيعي من المسلمين الى المسيحيين لأن ألوفاً من المسيحيين من أقطار العالم أمّوا الجامعات الإسلامية في الأندلس لتعلّم أحدث وأهم علوم ذلك العصر ، وبعد ذلك شرعوا ينقلون ما يتعلمونه الى اللغة اللاتينية التي كان يتكلم بها كلُّ رجل متعلم في أوروبا ، وما تمت هذه الترجمة حتى انتشرت في جهات العالم الاربع . فبين الكتب التي ترجمت ، كانت كتب كثيرة في علم الكيمياء : وأحدُ هذه الكتب كتابٌ في تركيب الكيمياء كتبه مريانوس استاذ خالد بن يزيد ولقد ترجمَ هذا الكتاب المستر روبرت الانكليزي الذي ترجم القرآن الكريم ، ونال شهرة كبيرة على ذلك . وترجمَ أيضاً كتاب الجبر للخوارزمي ، ولقد أتمّ هذه الترجمة في شهر فبراير عام ١١٤٤ للميلاد . ولقد قال أيضاً في مقدمته بأن العربيين لا يعرفون ما معنى الكيمياء وسأشرح ذلك وأبينُ أن العلم الطبيعي الذي كان الفضلُ

العرب في تقدمه قد تمّ على يد الكلابي .

كان المجريطيّ من أكبر علماء الطبيعة في الأندلس ، وقيل إنه توفي عام ١٠٠٧ للميلاد . وقد كان ماهراً في العلوم الرياضية كما أنه كان قديراً في علم الفلك وعلم الفرائض . وكثيرٌ من الناس يظنون أنه كتب كتاباً مشهوراً في علم الكيمياء سماه « رتبة الحكيم » وسواءٌ أكان هذا حقيقيًّا أم غير حقيقيّ فإنه من المصادق عليه أن المجريطي تجوّل في الشرق وتعرّف بإخوان الصفاء وأرجع معه الى الأندلس رسائلهم وأعاد نسخها ، مع أن البعض منها مغاير للأفكار الاسلامية . ولضرورة الاطلاع على ما كتبه إخوان الصفاء في علم الكيمياء كان عمل المجريطي كبيراً وساعد علماء العصر الحاضر كل المساعدة : نجد في هذه الرسائل تأثيراً كبيراً لجابر والرازي ولا نجد ذكراً لاسمهما .

نأتي الآن إلى برهان الدين أبي الحسن علي الاندلسي المعروف بابن أرفع رأس والمتوفى عام ١١٩٧ للميلاد ، وله اشعار في الكيمياء معروفة بشذور الذهب ، صعبٌ فهمها ، ويجد القارىء خلال هذه الاشعار ابتداء حادث عظيم انتشاره بين الكيمياء وبين الدين جاؤا بعده ألا وهو الخلط بين علم الكيمياء والسحر والخرافات التي كان قد تخلص منها العلم في أول زمن الاسلام بفضل جابر بن حيان والرازي إلاّ أن أبا القاسم محمد بن احمد العراقي قد رجع إلى الطريق المستقيم وعاش عام ١٣٠٠ للميلاد وكتب كتباً قليلة في علم الكيمياء أهمها « العلم المكتسب في زراعة الذهب » والنسخ الخطية من هذا الكتاب نادرة جدًّا : وهو يبحث عن إمكان تحويل المعادن . ويبتدىء المؤلف بالبحث عمّا إذا كان هذا التحويل يتفق مع آراء فلاسفة اليونان بهذا الشأن ، ومع آراء من أتى بعدهم من مفكري وعلماء الاسلام ، إلى أن يصل إلى النتيجة بأن التحويل ممكنٌ فيشرع في البحث عن إبراز هذه النظرية إلى حيز العمل ، ثم يختم كتابه بأقوال من سبقه من العلماء ليقوّي حُجّتَه وَيُثَبِّتَ نظريّتَه .

لقد شرح الجلدكي كتاب المكتسب في زراعة الذهب شرحاً وافياً في القرن الرابع عشر للميلاد وتوفي في القاهرة عام ١٣٦٠ للميلاد . فكتب كتباً عديدة تقدر أن نقف منها على تاريخ حياة الرجال العظام ، ونقف على شيء من علم الكيمياء في الاسلام وقد سُمّي

كتابه هذا « نهاية الطلب في شرح المكتسب » جاء في ثلاثة أجزاء فأمل أن يطبع هذا الكتاب أحد علماء العرب ليطلع عليه علماء الكيمياء في الغرب لأنه كتاب قيم مفيد .

كثيراً ما يسأل السؤال الآتي : ماذا عمل علماء الكيمياء العرب لتقدم هذا العلم ؟

اذا سأل أوربي أو خلافه هذا السؤال ، فما على العربي إلاَّ أن يجيبه بالجواب الآتي :—

١ — لقد أخذ العرب علم الكيمياء عن علماء اليونان والمصريين في الوقت الذي كاد يندرس فيه هذا العلم .

٢ — طهر العرب هذا العلم من الخرافات والحيل التي كادت أن تقضي عليه.

٣ - جعل العرب هذا العلم علماً طبيعيًّا ثابتاً مثل علم الطب والفلك والرياضيات .

٤ — اكتشف العرب الحوامض المعدنية مثل ماء الحلال وروح الكبريت وروح الملح وقد وجدت هذه الحوامض بعدئذٍ من أنفع الأشياء ، في تقدم علم الكيمياء .

٥ — إن جابر بن حيان هو أول من نطق بنظرية أن جميع المعادن مركبة من الكبريت والزئبق : فهذه نظرية مثل جميع النظريات قد أهملت في بادىء الأمر لكنها وجدت بعدئذٍ بأنها من أكبر المحميات في المباحث الكيمياوية ومهدت الطرق للنظريات التي أتت بعدها .

٦ — إن العالم بأسره مدين للعرب في تصنيف وتطوير العقاقير وفي تحسين العمليات والآلات الكيمياوية وفي اكتشاف كثير من المواد وفي استعمال الكيمياء في الطب والصناعة وإن العالم بأسره ليعترف بفضل العرب الذين لولاهم لما كان لعلم الكيمياء التقدم الذي وصل إليه في وقتنا الحاضر .

٧ — إنَّ أهل الغرب الحاليين لن ينسوا أبد الآبيد فضل العرب على أجدادهم الذين درسوا على العرب العلوم الطبيعية التي كانت أساس مدنيتهم الحاضرة .

إذا فكر العرب بأعمال أجدادهم الكرام أليس من الواجب عليهم أن يسعوا السعي الحثيث لإرجاع السيادة العربية في علم الكيمياء مرة أخرى ؟ نعم إن ذلك واجب على كل عربي ينطق بالضاد ما دام فيه عرق ينبض ودم يجري والله المعين .

شريف الفاتيبي

شوبنهور والطبيعة

البشرية

﴿ أهمية العالم : ظاهرية وباطنية ﴾ يقول شوبنهور إن حقائق النظام المادّي، قد تحوز قيمة ظاهرية كبيرة ، لا باطنية . لأن هذه من خصائص الحقائق الأدبية والفكرية التي من شأنها إبراز الارادة بأسمى أطوارها ، بينما تختص الحقائق المادية باظهار الإرادة في أحقر أطوارها وأرذل أوضاعها. ويجد شوبنهور في مذاهب الفلاسفة العظام شواهد كثيرة على هذه القيمة الباطنة ، كما أنه يلاحظها في كل مأساة بشرية تمثل أدوارها على مسرح الحياة ، وأيضاً في سلوك الناس، حيالي الخير والشر . فيقول إنها شواهد صادقة على هذه الحقيقة المعنوية الخالدة المتخذة لها من العالم الظاهر صورة خارجية . حقيقة تعلن عن طبيعتها العميقة بأسمى أطوارها المحسوسة . وإن الزعم بأن للعالم قيمة مادّية لا أدبية أو معنوية ، قائم على نظرة خاطئة في الأساس ، وعلى التواء في العقل والطبع . ومع هذا فانها نظرة قوية التكيف . متمكنة من النفوس ، وتستطيع أن ترفع رأسها بين آن وآخر حتى يجبرها السخط الكوني العميق الشامل على إخفاء ذاتها ، فتختفي لحين ثم ما تلبث أن تعاود الظهور كرّة أخرى ، وسيتناول شوبنهور في الحديث التالي هذه الفكرة بالشرح والتحليل والتمثيل محاولاً تبيان الأساس الصحيح الثابت للأخلاق في كل مكان أو زمان ، وبسط النتائج التي تنجم عن اتصاف الانسان بهذه الأخلاق.

﴿ ردّ على كانت (Kant) ﴾ يتساءل شوبنهور عمّا يدعو كبار الأساتذة الجامعيين الى الأخذ والتسليم برأي «كانت» في أن شعور الانسان وإيمانه بخطورة قدره وكرامة نفسه، يستند إلى حقيقة غريزية أصيلة في الإنسان . فلو سألتهم على مَ تقوم هذه الكرامة والخطورة والعظمة لأجابوا « على أخلاقه » أي أن أخلاق الإنسان تعتمد على كرامته الشخصية وخطورة قدره وعظمة ذاته ، كما تعتمد كرامته وخطورته وعظمته على أخلاقه . ومع ما يبدو

لنا في هذا المنطق من خلل ومغالطة وسفسطة ، فإن من السخف عزو الكرامة وخطورة الشأن إلى كائن كالإنسان ، إرادته أثيمة وعقله محدود وجسمه قابل للفناء . إذ كيف يجوز الاستناد لتفسير الفجر بكرامة أو عظمة ، ما دام إدراكه ينطوي على سوء وكانت ولادته قضاءً أليماً ، وحياته نصباً وعناءً ، وفناؤه أمراً محتماً .

وأنت حين تجلس إلى إنسان آخر لا تبدي اهتماماً بقدره وأبهته وعلو مجده بالغاً ما بلغ من ذلك . كلاَّ ولا تشير إلى إرادته الأثيمة أصلاً وفهمه الضيق وأفكاره الهزيلة . فأنت بعملك الأول قد تنساق من حيث لا تدري إلى كرهه ومقته ، وبالتالي إلى الاستخفاف به واحتقاره . أما إذا أردت أن تؤثر فيه أو تستحوذ على مشاعره ، فاضرب على وتر أهجانه وآلامه وأحزانه ، تراه قد استكان وانجذب إليك واستيقظت الرابطة الانسانية التي تربط بينك وبينه ، رابطة وصلة عميقتان وثيقتان تقوم على الضعف البشري الذي يشترك فيه كل الناس ويجعل منهم إخواناً في الحياة ، فيزول ما بنفوسهم من كراهية وتناحر وعداء ، وتشيع المحبة وتسود الرفق والعطف والحنان . ولم يُثر هذا الشعور وينبه هذه الرابطة ، اعتبارُك جليسك موطن احترامك وتمجيدك ، وإنما عظمتك وعزاؤك وعبقريتك ، وفي هذا برهان على عقم مذهب «كانت» بل فيه ما يدعونا إلى نفي الخطورة والعظمة والكرامة عن الإنسان . وما يجعلنا ننظر اليه كائناً حقيراً مسكيناً جديراً بالرأفة والشفقة .

﴿ نظرة في تقسيم الفضائل ﴾ يرى اليونانيون أن الرذيلة هي الأساس والأصل في طبيعة الإنسان ثم تأتي الفضيلة مظهراً معاكساً لها . والرذائل الرئيسة عندهم أربع ، وهي الشهوة والكسل والغضب والطمع . ومنهم من يجعل الكبرياء بدل الكسل ويضيف إليها خامسة هي الحسد . والصوفيون لاريب تأثروا بهذا التقسيم فجعلوا الرذائل أربعاً بين كل اثنتين منها تقارب وتجانس ، وهي الشهوة والطمع ، والكبرياء ، والغضب . ومن الواضح أن الفضائل المعاكسة لها هي العفة ، والكرم ، والتواضع ، والعطف . والذي يوازن بين رأي اليونانيين وبين تقسيم أفلاطون الفضائل الى العدل ، والشجاعة ، والاعتدال ، والحكمة ، يرى ان أفلاطون لم يتخذ لتقسيمه أساساً مبنياً على العقل والمنطق . فقد اعتبر الحكمة فضيلة ، مع أنها من صفات العقل في الغالب ، وليست من صفات الإرادة . كما أن الاعتدال صفة غامضة غير محدودة ، وتشير إلى فضائل عديدة

متنوعة. وأيضاً فإن الشجاعة ليست فضيلة، أكثر من كونها آلة في يد الفضيلة. ومن الجائز أن تكون كذلك في يد الرذيلة. إنها في الواقع من صفات الطبع. والفضائل الرئيسة عند الصينيين خمسة هي الشفقة، والعدل، واللياقة، والحكمة، والاخلاص. بينما الفضائل المسيحية ثلاث الايمان والرجاء والمحبة.

﴿ نقطة بدء الأخلاق ﴾ يقول شوبنهور إن شعور الفرد نحو الغير إمّا متمثلاً بالحسد أو بالشفقة، هو النقطة التي يتفرّع منها طريقا الشر والخير، أو الرذيلة والفضيلة. وظاهرتا الحسد والشفقة هما عند كل الناس، وإنما بنسب مختلفة، وتنشآن من مقايسة الانسان حظه بغيره، ونتيجة لذلك فإنه يرضخ لإحدى هاتين الخلّتين، وتتسم أطواره وأعماله بميسمها وتتأثر بها. والحسد يشيد حاجزاً قويًّا ضيقاً بين (أنا) و (أنت) لكنّ الشفقة تعمل على هدمه وإزالة الفارق بين كل نفس ونفس، لعلّهما تصبحان في النهاية شيئاً واحداً.

﴿ الجبن والشجاعة ﴾ وينتقل شوبنهور إلى التأمّل في الشجاعة والجبن، فيصف الشجاعة بأنها استعداد المرء لمجابهة شرور تهدده في الحاضر، لكي يحول دون وقوع ما هو أعظم منها في المستقبل، بينما الجبن على عكس ذلك تماماً. ويقول إن الصبر قائم على إدراك واضح لشرور أخطر من التي يلاقيها الإنسان في حاضره، وإن تهربه من مواجهة الشرور الحالية بقوة وجلد، قد يجلب على نفسه ما هو أشد منها وأعظم وأعنف. ولهذا كانت الشجاعة من ناحية، نوعاً من الصبر. وما دام الصبر هو الذي يمكن الإنسان من التجلد وضبط الأعصاب إزاء المخاطر، فالشجاعة بواسطة الصبر، تعتبر شيئاً من الفضيلة.

ولا يدري شوبنهور لِمَ لا تسمو الشجاعة إلى مستوى الفضائل الكبرى، ما دام الخوف من الموت في رأيه مبنيًّا على نظرة فلسفية خاطئة. إذ ليس يجوز أن يخشى الإنسان الموت ما دام وجوده موكداً في خارج ذاته، كما في ذاته أيضاً. وليس يضره أو يخيفه موته نفسه، ما دامت حياته مستمرة في الغير. بل هذا ما يجب أن يزهد الحياة في عينه، ويبعث في نفسه الشجاعة لملاقاة الموت غير وجل، ويجعل الجبن لديه أمراً حقيراً ممقوتاً.

يقول شوبنهور: هذا لدى النظر في الشجاعة من ناحية فلسفية عالية. أما إذا اعتبرت من ناحية عادية كان للجبن ما يبرّره ويجوزه عند العامة والدهماء. فالإنسان العادي يرى نفسه

كل شيء في الحياة ، بل يرى ذاته الشرط الأساسي لوجود العالم كله . ولذا فإنه يضع أمر حياته نصب عينه فوق كل أمر وعامل ، فلا يجازف بحياته بدافع الشجاعة ، فيستكين للذل ويعتصم بالجبن لكي يضمن وجوده في الحياة . وعن هذا الأساس فقط ، فقدت الشجاعة منزلتها بين الفضائل الكبرى .

﴿ الطمع — مآلهُ ﴾ يقول هوبنهور إنك إذا نظرت في الطمع من زاوية معينة ، رأيت له محاسن تجعله ضروريًّا للإنسان لازماً لحياته ، فاعتبرته على هذا الأساس فضيلة ، بينما كان التبذير الذي يكون الطرف الثاني رذيلة . لأنك إذا أنعمت النظر في حقيقة التبذير ألفيته ينشأ من تقييد الإنسان اللذة وربطها بالدقيقة الحاضرة بدل الآتية ، وربط اللذة وتقييدها بالحاضر ، يستند إلى الاعتقاد الوهمي الباطل بأن للذة معنىً حقيقيًّا إيجابيًّا . وينجم عن هذا أن يمسي المبذر إن آجلاً أم عاجلاً ، فقيراً معدماً بائساً . إنه ثمن يدفعه لقاء جريه وراء اللذة الجوفاء العابرة القائمة على أوهام باطلة زائفة ، أو مقابل ما طاش عليه غروره وزهوه من كذب المنافقين ورياء الطفيليين الطائرين منه في سرهم ، ومن نظرات الدهماء الرانية إليه بذهول وحسد واستطاف . وبديهي أن يؤول التبذير بصاحبه في نهاية الأمر إلى إتيان الشر (١) .

والدافع للطمع اعتبار الإنسان اللذة أمراً سلبيًّا والسعادة القائمة على سلسلة من اللذائذ غولاً شرهاً نهماً لا يعرف الشبع . بينما ان الألم هو الحقيقة الإيجابية في هذه الحياة . لهذا ترى الإنسان يتهافت على التبذير ليسلك بواسطته سبيلاً إلى اللذة التي تنسيه الآلام . ولما كانت إمكانيات الشقاء والألم في الحياة لا تنفد ، ومواطن الخطر لا عدّ لها ولا حد ، فان الإنسان يلجأ إلى الطمع ليتقي به أكبر شر ممكن . ولسنا نستطيع أن ننعي على الإنسان إفراطه في الطمع والحرص والتقتير ، لأنه ليس في مقدور أحد تعيين الحد الفاصل الذي عنده تنتهي أحكام القدر القاسية ، وأضحت كل حيطة تتخذ ضده بواسطة جمع المال من دلائل الحكمة والعقل . وهل يفيد جمع المال وتكديسه ما دام يؤول مصيره آخر الأمر الى غير صاحبه ، ويصبح سلاحاً واقياً في يد أحد الناس ضد الفاقة والذل ؟ وقد صدق المثل الإسباني القائل « ذو القلب القاسي يهب أكثر من ذي الجيب الخالي » . وعلى هذا الاعتبار يبدو

(١) جاء في القرآن الكريم : « إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين » .

لشوبنهور أن الطمع ليس رذيلة ، وأن التبذير بعيدٌ عن كونه فضيلة .

﴿ الطمع — ما عليه ﴾ بيدَ أن شوبنهور يرى في الطمع إذا اعتبرناه من ناحية ثانية خلاصة الرذائل جميعها . ذلك أن الغرائز الحيوانية في الإنسان تدفعه لملاحقة اللذة الحسية والاندفاع وراءها اندفاعاً أعمى دون التبصر في عواقبها السيئة . إذ حين يشبع الإنسان ويهرم تنقص مقدرته على إشباع شهواته، وتضعف استجابته للذائذ الجسدية، بسبب ما اعترى جسمه من هزال، وما أصاب قوته من خور وانخذال ، فتستحيل رغبته في الاستمتاع باللذة الحسية إلى عبادة المال ، فيعمل على جمعه وخزنه دون أن يعي لذلك سبباً معقولاً . وبهذه الصورة تسري الحياة من جديد في هذا الجذع اليابس، بعد أن كان أخضر يانعاً زاهراً بجميع أصناف الشهوات . إنها الرغبة في المال تتمكن من صاحبها وتقوى في نفسه وتعصف به ، وباستطاعتها أن تصيّر أكثر منه إن قُدر لها أن تجري معه في رهان زمني . رغبته هي الشكل المجرّد الذي فيه تتركز جميع شهوات الجسد ومطالبه الدنيئة،وإليه تتحوّل وفيه تنكب وتتجمع وتتجمّد . ولهذا كان من الأصحّ اعتبار الطمع رذيلة الشيخوخة، والتبذير رذيلة الشباب .

ولعلّنا مرغمون إزاء ما نراه للطمع من محاسن ومساوىء على قبول المتوسط الذهبي الذي نادى به أرسطو . فنعتبر الاقتصاد الواقع بين الطمع والتبذير فضيلة . ويحملنا على هذا القول اعتبار كل كمال نسبي في الطبيعة البشرية قرينا لنقص ما ، وكل نقص حليفاً لنوع من الكمال . ولهذا فإننا كثيراً ما نخلط بين ما يبدو لنا في نفوس الناس من نقائص وكمالات عالقة بها . فنحكم على الحذر مثلاً بالجبن ، وعلى المقتصد بالبخل والمسرف بالكرم وجافي الطبع بالصراحة والجرأة .

﴿ ضعف عقلي وخطة خلقية ﴾ ويلاحظ شوبنهور الخطأ الشائع في الاعتقاد السائد بأن خطّة الخلق والغباء صنوان لا ينفصلان ، وأن منشأهما وأصلهما واحد . ولكن الواقع خلاف ذلك،وإنما يحمل على هذا التصوّر والاعتقاد وجودهما معاً في أغلب الأحوال ، كأنما يطيب لهما العيش تحت سقف واحد . وكثيراً ما يفسد أمر هذه الصداقة ويضطرب حبل الزمالة والألفة المتبادلة بينهما فتقطع . فقد لا يتمكن الغبي مثلاً من إخفاء تؤمه وغدره

وفساد طبعه . بينما يقتدر الذكي أن يستر عيوبه الخلقية إلى حدٍّ بعيد ، فيبدو بمظهر كريم الخلال دون لبس على خلقه من غبار . وكم يحول لؤم الانسان وسوء طويته دون تمكُّنه من رؤية الحق ناصعاً ، فيتحيَّر ضدّه ، فيحكم عليه الناس بضعف العقل وبلادة الذهن .

ولا يزعم هوبنهور أن في الحياة من تخلو طبيعته من عناصر الشر خلوًّا تامًّا ، إذ هو يرى تفاوتاً بين الناس من حيث الطبائع والأخلاق ، كما في العقول . وإن أطيب الناس خلقاً وأنبلهم طبيعة ، لا تخلو نفسه من بعض بذور الشر والفساد . ويتمنى فيلسوفنا لو كان في مقدور الإنسان أن يرى ذاته مجرّدة عارية كما هي ، إذن لانضحت له ضآلة الأنانة وزهادة النبل وحسّ الخير المطوي خلف سحب كثيفة من الرياء والمكر والادعاء الكاذب ، وبرزت لناظريه صورة مرعبة مزرية يندى لها جبين الانسانية عاراً وخجلاً ، تلك هي صورة حيوان الشرّ المكشّر عن أنيابه الجائع وراء المظاهر البرّاقة الخداعة من الأخلاق المزيفة ، الجالس إلى دفة سفينة الطبيعة البشرية يدفعها ويسيّرها في مسالك الإثم والباطل . فلا جَرَم إذا ما رأيت الكثيرين يختارون أصدقاءهم من عالم الحيوان ، ذلك لأن القلوب تطمئن إلى ما فُطرت عليه نفس الحيوان من البساطة والصفاء والصدق والولاء الذي ندر أن يكون طبعاً فطريًّا أصيلاً عند بني الانسان .

﴿ وجوه وأقنعة عديدة ﴾ ويتساءل هوبنهور قائلاً : « وهل كان العالم المتمدين غير مرقص تعلو وجوه اللاّهين فيه أقنعة عديدة فيبدون جميعاً بوجوه كاذبة ؟ » فئة الفلاسفة والعلماء وأهل الدين والأدباء والسّاسة والمحامون والأطباء وجميعهم يظهرون للناس على خلاف حقائقهم ونوازعهم الصحيحة . وما كانت هذه الأسماء الطنانة غير عناوين كاذبة على وجوه مصطنعة تخفي تحتها طلاّب نفع وفائدة شخصية في الحياة . فمنهم الذي استعار قناع المحامي البارع للدفاع عن الحق ظاهراً وابتزاز الأموال حقيقة وباطناً (الذين يحاربون الناس بالباطل ليُدحضوا به الحق) . وآخر استعار قناع الوطنية والخدمة العامة لغاية مماثلة . وثالث لبس وجه الدين ولحيته الكثة الكثيفة . ولغاية مشابهة بدا بعضهم بوجه العالم الفيلسوف أو المحسن الكبير . والنساء اخترعن أقنعة الرقة والاحتشام للسيطرة على قلوب الرجال . وهنالك أقنعة عامّة ووجوه متنوّعة زائفة تفيد في تحقيق أغراض كثيرة مختلفة كوجوه

الاستقامة والشفقة واللطف والمحاماة والصداقة، وجلها تُستخذ لمقاصد نفعية منتزعة من لبّ الأنانية المنكرة. وقد يكون التجار هم الصنف الأوحد الذين يبدون على حقيقتهم، وفما يحتاجون لوجه كاذب. فهم ظاهراً وباطناً يسعون وراء غاية واحدة هي أن يصبح المال الذي في جيبك في النهاية مالهم.

﴿ الانسان حيوان ﴾ وهل كان الانسان في جوهره وحقيقته سوى وحش كاسرا وهل كانت الحضارة البشرية غير عملية ترويض وضبط وتهذيب لهذا الحيوان الرابض في أعشاء الانسان! فليتنا لا نتقص دهشة واستغراباً ولا ترتعد فرائصنا رهبة وإشفاقاً حين نشاهد الطبيعة البشرية الأولى تنطلق من عقالها محطمة أصفاد النظام والعادات والقوانين، فيبدو عندها الانسان عارياً مجرداً، شرّاً من الحيوان! ولسنا بحاجة لانتظار الفوضى والعبث بالقانون والاخلال بالنظام الذي يأتيه الانسان من حين إلى آخر على نطاق هامل واسع لندلل على حيوانيته الشرسة الجامحة. ففي حياة الأفراد كما في التاريخ أمثلة واقعية لا تعدّ ولا تحصى على انصاف الإنسان بقسوة ووحشية وفظاظة في الطبع لا ترى لها مثيلاً عند الأسد أو النمر أو الضبع. ففينا يقطن ويعمر حيوان الأنانية وحبة الذات الذي يحطم أغلال الحق والعدل وحب الخير بعنف وقوة مرعبة. أوليس وجود مبدأ التوازن الدولي في أوربا دلالة ساطعة على أن الانسان حيوان مفترس ما يكاد يلمس ضعف أخيه الإنسان وعجزه عن الذود عن نفسه حتى ينقضّ عليه بشراهة الوحوش؟ أوَ لا ترى إلى جانب حيوان الأثرة وحب الذات حيوانات أخرى تحتشد في صدر الانسان كوحوش الكراهية والغضب والغلّ والحقد والحسد، وكلها متركزة كالسم في ناب الأفعى تتربص الفرصة السانحة للسطو على يعترض سبيلها في الحياة؟ وهل رأيت غاباً يكتظ بوحوش أكثر شرّاً وسوءاً وإيذاء من التي تكمن وتعيش وتولد في نفس الإنسان؟

﴿ الحيوان أنبل من الإنسان ﴾ ويتجاوز طوبنهور هذا الحكم إلى القول بأن الحيوان أنبل من الانسان وأسمى. لأن الإنسان هو الوحيد بين ملبقات الحيوان الذي يوقع في الغير أذى وألماً لمجرد الرغبة في ذلك، ولا يفعل ذلك غيره من الحيوانات إلا بدافع الجوع، أو الذود عن النفس. كلاّ ولا يعذب حيوان آخر لمجرّد التعذيب فحسب. بينما يفعل الإنسان

أكثر من ذلك لأنه مفطور على الأذى والضرر . وهذا ما يجعله دون الحيوان في حطة نفسه وسوء طبيعته . وفي الحياة أمثال كثيرة تثبت ذلك وتؤيده . ولهذا كان الحيوان حكيماً ونسيباً إذا ما خشي الانسان وولى هارباً لدى وقوع بصره عليه . لأن التجارب علمته حقيقة مفيدة لازمة لحياته ما دام خاضعاً للحياة ، وهي أن الانسان هو الكائن الأوحد الذي يقتنص قنصاً لا يفيد منه ولا يخشى أذاه .

﴿ الرغبة في الحياة ﴾ ويقول شوبنهور إن الوحش الجاثم في نفس الإنسان هو علة كل نزاع وشر . وليس من يستطيع ترويضه وكبح جماحه وتقييده غير العقل حارسه اليقظ الذكي والماهر الجبار . والناس اصطلحوا على تسمية هذا الوحش الكاسر بالناحية الشريرة من طبيعة الإنسان ، مع أنها تمثل في الواقع رغبة الإنسان في الحياة وتمسكه بأذيالها بكل سبيل مستطاع . وتصطدم رغبة الإنسان القوية في الحياة بألوان العذاب في الوجود ، فيعمل على تخفيف آلامه أزال الألم بغيره . ومن هناك الحقد والغل والكره وجميع أصناف الرذائل الإيجابية المؤذية في الطبيعة البشرية . وقد لاحظ كانت (Kant) أن المادة كامنة من جراء التضاد بين عاملي القبض والامتداد . وشوبنهور يقول ما يشبه هذا فيما يتعلق بالانسان . فالانسان يستطيع أن يضمن بقاءه في الحياة بسبب التضاد والمشادة والتجاذب الكائن بين عوامل الكره او الغضب والخوف التي تتملكه في بعض الأحوال : فقد تمر عليك ظروف تدفعك للاجرام ، لولا عامل الخوف الذي يلطف من طبعك الأثيم ويخفف من حدته . كما أن الخوف يجعل من الانسان مهزلة في أعين الآخرين ، لولا الغضب الذي يتفجر من نفسه فيعينه على مقاومة الخوف وإزالته من نفسه بقدر الامكان .

﴿ الشماتة ﴾ وفي رأي شوبنهور أن الشماتة أو الفرح بما يصيب الآخرين من أذى وضرر ، أسوأ مظهر من طبيعة الانسان . والشماتة تمثل الطرف الآخر من الشفقة التي هي مصدر الإنصاف والرحمة والإحسان . ومع أن الحسد على الضد من الشفقة من ناحية معينة ، إلا أنه نتيجة مباشرة لما يبعث إليه . وهذا ما يبرره بعض الشيء ويجعل منه شعوراً مستساغاً ، فطبعاً عادياً عند بني البشر . وليس يخلو أحد من بعض الحسد ، بل من الجائز المعقول أن يشعر أحدنا بحاجته لأشياء تتوافر لدى غيره وجلبت له المسرة والسعادة ، إنما لا يجوز أن

يتطوّر هذا الشعور إلى حدّ الكراهية، فتحقّقت من تراه أسعد منك حالاً، وتزجو له الأذى وتفرح بمصيبته

﴿ الحسد ﴾ وقد يكون الحسد أمر المذر حين يبدو في نفسك ما وهبه القضاء أو الصدفة أو الحظّ من نعم وعطايا للانسان الآخر . ولكنه يسوء ويهبط إلى مستوى حقير دنيء مشين حين تكون النعم من فضل الخالق الأعظم . مع هذا فانك تجد أن ما ليس للانسان من فضل في الحصول عليه ، وأن ما تسبغه يد الطبيعة الكريمة على أبناء المسكونة من مواهب وفيرة، لأكثر اثارة للحسد في نفوس الناس . فالعقل الكبير ، والذكاء الألمعي ، حتى العبقرية، لا تستطيع رفع رأسها عالياً والمضي في سبيلها في هذه الحياة دون أن تتوسل الصفح والمعذرة لوجودها حين لا تؤاتيها الظروف، وتؤازرها الأوضاع ، على تحدي العالم واحتقاره بجرأة واعتزاز . وقد يتمكن الحسود يوماً من كسب الأعراض التي تثير كامن حسده كالجاه والمال والحصول على الرقي الزائف الذي لا يمس النفس والروح والعقل ، بل لا يتعدى التصور، فلا تنقذ الانسان من الاصطلاء بنار الجهل الكاوية أو يحول دون ولوجه عالم النسيان الأبدي المخيف . بيد أنه لا يستطيع كسب ما يملكه غيره من مزايا عقلية وقيمة وخصائص ممتازة كالذكاء وجمال الخلقة وفيل الفطرة ، وجميع المواهب العالية الموروثة ، فلا يلتي ما يغذي أعصابه المنهوكة المهروءة ويريحها وينفس عن نفسه المكبوتة المخنوقة غير مقت ذي الخصائص الممتازة والدس عليه والتنكر له والانتقاص من قيمته بشتى الأساليب ، وحتى يصيب النجاح من هذا ، فانه يحاول إخفاء نواياه الآثيمة بحذق ودهاء مصطنعاً في ذلك جميع ألوان الخداع من تزلف ومكر ورياء . وقد يتعدى ذلك إلى الكذب حتى على نفسه والدجل على غيره ، فيمثل دور غير الآبه المكترث لما يراه في الآخرين من مزايا تؤذيه وتنغص مضجعه . وإنه لا يذر وسيلة ناجعة أو يترك فرصة سانحة الاّ واستغلها في تشويه مقوّمات شخصية المحسود وتلويث سمعته وطمس شهرته . فأنه في ذلك كأن الأفعى تترقب الفريسة المؤاتية فتلسع عدوها ، ثم تتراجع الى جحرها آمنة ترى فتسحق . وهيهات أن يتمكن الحسود مما تتمكن منه الأفعى ، فانه يميز ويعرف بسهولة ، فيتم عليه ويفضح أمره ويكشف عن حقيقة اختلاف سجيته ، وما يدل على لسانه من عبارات مرّة لاذعة ، كما يرى فيه انعدام

الحسود . وكذلك سكونه غير الطبيعي الشاذ ، وانخذال قواه العقلية والنفسية في حضرة رجل المواهب الرفيعة والمدركات اساسية ، فلا يقوى على الصمود أمامه بل يذوب وينصهر كما تذوب فلول الظلام الدامس وتتقهقر وتتبدد أمام سهام ذكائه الحادة المشرقة . فاترقب الحسود وتذكر أنه يبطن العداء ومرارة النفس والبغضاء ، ويعيش في ظلام الكهوف ، ودوماً يسير في الحياة متنكراً مضللاً قلقاً نهماً .

﴿ عقاب وثواب ﴾ يبدو لشوبنهور أن شقاء الانسان في هذا الوجود هو بنسبة فساد طبعه وسوء طويته ، وأنه في واقع الأمر ناتج عن هذا الفساد والسوء . ومن هنا كان يسيراً علينا إدراك معنى العدل الالهي المطلق في العالم . وأن في الحياة الدنيا دنيوية عقابية لا تقل عما في الآخرة ، وأن الانسان يلاقي جزاء إثمه في حياته كما في مماته ، وأن هذا الجزاء مساوٍ لما ينطوي عليه خلقه من شرّ وطبيعته من فساد . وشوبنهور ليس بالمتشائم إلى الحد الذي يضيق عليه خناق الوجود فلا يرى فيه غير الاثم والشرّ المتأصل المتمكن من النفس البشرية ، فإنه يلمح أحياناً أنواراً وضّاءة من الأمانة والنبل وحب الخير ، تنبعث من جوف مغارة الطبيعة البشرية الحالكة الظلام ، فتزهر الحياة وتشرق وتشيع ثقة الانسان بالانسان .

﴿ غيرك ذاتك ﴾ ويعدّ شوبنهور مصدر الفضائل جميعها مبدأ (غيرك ذاتك) الذي شرحه بتفصيل في كتابه (الأخلاق) . ويعني بذلك أن كل كائن حيّ غيرك هو في الحقيقة ذاتك ، وأن ليس ثمّة من فرق جوهري حاصل بينك وبين غيرك من الأحياء . ولهذا كان كل إحسان تسديه للناس ، وكل صدقة تتقدّم بها ، هي بداءة الصوفية العالية في الخلق البشري ، وكل فضل تصنعه للغير عن قصد نقي ونيّة طاهرة صافية دليلٌ على أنك تعمل منافياً لطبيعة العالم الظاهرة . ذلك أنك تعتبر ذاتك من حيث لا تشعر ، شيئاً لفرد آخر منفصل عنك فتعامله كنفسك . وإليك شاهداً على هذا حين يتقدم شخص للموت في سبيل غيره راضياً باسماً ، أو قصة الخادم الذي عضّه كلب مصاب بداء الكلب فلم يلهه التفكير بنفسه عن الاهتمام بأمر غيره ، فيقبض على الكلب بقوة خارقة ويدخله غرفة ويرصد الباب عليه ثلاثاً يفلت فيؤذي غيره . وقصة الجندي الذي حُكم عليه بالموت ، وحين جنا يستقبل الرصاص دفع عنه كلبه الأمين

الجاثم قربه خشية ان يُقتل خطأً . وفي هذا برهان ساطع على أن الانسان قد ينسى ذاته في ساعة الخطر فيوجه عواطفه ويشحذ قواه لانقاذ الآخرين . ومن هذا يستنتج شوبنهور أن الانسان لا يفنى بفناء جسمه ، وإنما يعيش في الأحياء الآخرين ، وفيهم يستمرّ بقاؤه في عالم الوجود . وأنه في أسمى أوضاعه الروحية وأحواله النفسية، يدرك ذلك ويحس به ، وإلاّ لما ألفيته يهتم بأمور غيره ويعمل على استمرار وجودهم في الحياة في حال هجره هذه الحياة .

﴿ صورتان للوجود في ذهن الانسان ﴾ يرى شوبنهور أن للانسان وسيلتين بهما يعي وجوده في الحياة: الأولى إدراك الوجود قائم على ملاحظة المظهر الخارجي للعالم، وفيها يرى ذاته هيئاً حقيراً زهيداً إلى حدّ تقلة الزوال من هذا العالم الذي لا يُعدّ ، وانه واحدٌ من ملايين مثله يسعون على وجه هذا الكوكب الصغرة وجيزة ويتعدّدون كل ثلاثين عاماً. والثانية تتأتى من تغلغل الانسان بثاقب فكره إلى أعماق ذاته وسبر أغوار نفسه فيفضي به ذلك إلى الشعور بأنه (الكل في الكل) ، وأنه الكائن الحقيقي في هذا الوجود ، وأنه ككائن حقيقي يرى ذاته مكرّرة في الآخرين الذين يبدون له كأنما هم ذاته الحقيقية قد انعكست في مرايا .

والصورة الأولى تطابق مبدأ كانت (Kant) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين . والثانية من العقائد التي جاء بها الفيدا (Veda) الكتاب المقدس للبرهمية في الهند . وربما اعترض أحدهم على الصورة الثانية ملاحظاً استحالة إدراك الربط والوصل بين كائنين منفردين وإدماجهما في وجود واحد وحياة واحدة جامعة ، بالرغم مما بينهما من انفصال زماني ومكاني كما تدلّ ظواهر الأشياء . ويجيب شوبنهور بقوله إن مبدأ (كانت) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين يساعد على توضيح هذه الصورة وطبعها في النفوس والأذهان . ذلك ان الرغبة في الحياة من الخصائص الأساسية لجميع الكائنات الحية ، منفردة وكذلك متجمعة تمثّل الحياة ككلية واحدة في جميع الأزمان . ولهذا كان لسان حال كل كائن حي قوله مخاطباً ذاته « ما دُمت آمناً على نفسي ، فلست أسأل لو هلك العالم كله ؟

ويؤكد شوبنهور أنه لو ظلّ فرد واحدٌ حيّاً وهلك الناس جميعاً فان هذا الفرد يملك في نفسه الوجود الذاتي للعالم بأسره غير مشوب أو منقوص ، ويسخر من فناء العالم كأنه وهمٌ باطل . كما يعتقد أن بفناء ذلك الفرد الباقي فناء كل العالم أيضاً . ولعلّ هذا ما عناه

الفيلسوف الصوفي أنجليوس سيليسيوس Angelus Silesius إذ صرّح باستحالة وجود الخالق بدونه، وانه بفنائه فناء الله تعالى، وقد يكون هذا القول مطابقاً لما جاء في الحكمة الاصلامية القائلة على لسانه عزّ وجلّ «كنت كنزاً مخفيًّا فأحببتُ أن أعرف فخلقت الخلق فبهم عُرفت». ويقرّب شوبنهور إلى أذهاننا اعتقاده بوجود الفرد خارج ذاته بظاهرة المشي أثناء النوم. فمع ان السائر أثناء النوم لا يفقد ذاته، فانه حين يستيقظ لا يتذكر ما فعله خلال نومه. وهكذا نجد أنه من الذات الواحدة ينشأ ويتكوّن ويخرج وعيان منفصلان لا يدري أحدهما من أمر الآخر شيئاً!

﴿ الخلاصة ﴾ وصفوة ما يستنتج من شرح شوبنهور وتحليله الفلسفي للطبيعة البشرية أن للانسان كما للكون حقيقتين باطنية وظاهرية. وأنه من واجب المفكرين وذوي الألباب الالتفات إلى الحقيقة الباطنية الكامنة وراء المظاهر الخارجية، لأنها وحدها التي تملك قيمة معنوية عالية. إذ كثيراً ما تخدعنا مظاهر الخلق والتصرف البشري الزائفة فتصورنا حقائق راهنة. وشوبنهور يهدف إلى إزالة التعمية أو التنكير (كاموفلاج) التي يلجأ إليها الانسان في سلوكه في الحياة فتحول بينه وبين رؤية حقيقة ذاته وجهاً لوجه، وتقصيه عن السبيل المفضي به إلى الخير والسموّ والكمال المطلق. ولقد شرحت هذه الفكرة في مقال مبتكر أسميته (وحدانية الانسان) ويتلخص كله في الجملة الآتية (إنه لا فرق بين مشرك بالله ومشرك بالنفس. فلن يدخل ملكوت الله الأحد غير الانسان الأحد. ولعلّ مقصود الانسان بعد جهاد خلقي عنيف ورياضة روحية صارمة: التوفيق بين ظاهره وباطنه حتى يصبح من ذاته إنساناً واحداً ومن نفسه وحدة لا تتجزأ. عندها يسهل عليه أن يرى غيره كذاته فيعامله كنفسه، وإذا ما تمّ له ذلك أصبح عالمنا عالم خير ومحبة وتسامح وتضحية وعطاء. عالم شعاره وطابعه الحكمة الأزلية الخالدة التي دعا بها الرسول الأعظم «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

الفلط — شرق الاردن

هربرت الفسوس
ب. ع. أدب الجليزي

الخلوروس وعلاجه

هو نوع خاص من الأنيميا يصيب الشابات في دور البلوغ . وكلمة خلوروس Chloros مشتقة من اليونانية ومعناها «أخضر»[1] ، وهذا الداء معروف ويطلق عليه عاميًّا اسم المرض الأخضر أو أيضاً داء الخضرة ويتميز جوهريًّا عن الانيميا (فقر الدم) ليس بنقص كريات الدم الحمر الناتج عن فقد كمية كبيرة من دم الجسم ، أو من تلف الدم أو من خلل في تجهيزه — بل من نقص مقدار اليَحْمور (الهموغلوبين) الذي في الكريات . ويتسبب نقص اليحمور هذا عن نقص الحديد في الدم . فالمصابون بهذا المرض يكون عدد كريات الدم عندهم طبيعيًّا أو تقريباً طبيعيًّا ، غير إن كل واحدة من هذه الكريات تكون فقيرة مادة اليحمور (وهي المادة الملونة للدم) . وقد تقلّ كمية اليحمور هذا الى خمس النسبة الطبيعية . وفي حالات المرض المتوسطة الخطورة تهبط كميته الى ٤٠ بل إلى ٦٠ في المئة عمّا هي في الحالة السويّة .

﴿ أعراضه ﴾ : يُعرف الخلوروس بوجه عام من هيئة المريض الخاصّة دون أن تدعو الضرورة حتماً إلى فحص الدم ، فترى المصاب إذ ذاك شاحب اللون الى الاخضرار ووجه أبيض كالشمع . وإذا نظرنا إلى ملتحمة العين الجفني ، واثنة والشفتين نجدها إلى الصفرة باهتة اللون ، مع انتفاخ في الجفون وفي كعب القدمين . وخلافاً للمصابين بفقر الدم تكون حالة التغذية عموماً عند المصابين بالخلوروس جيدة ، فهم يتغذون غالباً تغذية حسنة ويكون وجههم في أكثر الأحيان منتفخاً ومنهم بالعكس من تتلوّن خدوده فتبدو وردية زاهرة بانقياس إلى اقسام الوجه الأخرى . وعند ما تشتدّ الحالة يصاب المريض بانحطاط القوى ، والخفقان ، وسرعة دقات القلب ، والدوار ، وضيق التنفس عند أقل مجهود عضلي ، واختلال الحس في الأطراف والدوار بثقل أو ضغط في الرأس . ويرافق هذا غالباً بعض اضطرابات هضمية مثل فقدان الشهوة إلى الطعام أو ازديادها أو انحرافها ، والامساك المستعصي وكسل الامعاء وسوء الهضم وتمدد المعدة ، وتكون الكبد إما صغيرة أو متضخمة ، وهذه الأعراض لا تختلف إلاّ قليلاً عمّا هي في حالة الاصابة بالأنيميا . أضف إلى ما تقدم :

(١) يمكن أن يسمى هذا مرض الحضار بضم الخاء (المحرر) .

المبول الخاصة عند المصابين بالخلوروس لبعض الأطعمة فتراهم يحبون بنوع خاص الخل والتوابل وحبوب التنهود والطباشير أحياناً الخ... وكثيراً ما يتفق حدوث قرحة المعدة مع الاصابة بالخلوروس .

ويرافق أيضاً هذه الحالة في أغلب الأحيان اضطرابات النحث، وهذا إما أن ينقطع أو يكون غزيراً جداً . ويصاب المريض عدا ذلك بضعف القلب والأعصاب ويكون مُعرَّضاً غالباً للاصابة بالسل الرئوي . وقد تصاب أيضاً العروق بانسداد يفضي إلى الموت . وبالرغم من ذلك كله فالخلوروس يعتبر من الأمراض الممكن شفاؤها خلال بضعة شهور إذا عولج في بدايته. وفي بعض الأحيان تراه يُشفى من تلقاء نفسه فتطول حينئذٍ مدة الشفاء . وفي بعض المرات أيضاً تنتكس حالة المصاب بعد التحسن وتبقى الفتيات المصابات مدة طويلة جداً في حالة تعسة محزنة ، فلا هنَّ بصحة جيدة فعلاً ، ولا هنَّ بالمريضات حقيقةً .

﴿ أعراضه ﴾ : تعزى أعراض الخلوروس غالباً الى رداءة الحالة الصحية وسوء المعيشة والسكنى زمناً طويلاً في غرف ضيقة قليلة الهواء ، ثم إلى التغذية غير الكافية ، وقلة النوم أو عدمه والتعب والتأثرات والشغل المتواصل في المدن . ومن الأعراض المهيئة لذلك أيضاً لبس الملابس غير الصحية ولا سيما المشد . وحيال هذه الأعراض العَرَضية المساعدة على الاصابة بالخلوروس توجد أيضاً أعراض حقيقية خاصة بهذا الداء تدل غالباً على تسببه كصغر القلب مثلاً أو وجود تَحَشُّر في الأوعية الدموية ، وهما عَرَضان يشاهدان عند كثيرين من المصابين بهذا المرض وإن كان وجودهما فعلاً لا يكفي لتفسير كل الحالات .

والواقع أن الخلوروس نفسه له أهمية كبرى في حدوث كثير من الاضطرابات القلبية . ولما كانت أصابه تبدل في تركيب الدم ولا سيما نقص في كمية الهيموجلوبين كما قلنا ، نشأ عن ذلك والحالة هذه نقص في تغذية القلب . ولهذا نجد في كثير من الأحيان عند الفتيات الشاحبات اللون والمصابات بفقر الدم — اللاتي يشتغلن عادةً بائعات في المخازن ، أو أمينات صناديق ، أو عاملات في المعامل أو أيضاً خادمات — مرض في الصمامات مع تمدد في عضلة القلب . ولحسن الحظ يحدث غالباً أن تتحسن كثيراً حالتهن الصحية ويزول المرض ويتم الشفاء ولو بعد فترات الوقت .

١ — ﴿ العلاج العام لهذا المرض ﴾ : يجب أن نلاحظ أولاً في مداواة الخلوروس النقطة التالية: وهي أن قسماً من هذا المرض يعود سببه إلى رداءة الحالة الصحية . فاذا كانت الحالة خطيرة وكانت نسبة الهيموجلوبين ٥٠ في المئة أو أقل من ذلك، فلا بدّ للمصاب والحالة هذه من الراحة التامة وملازمة الفراش ، بل والأفضل من ذلك إرساله إلى أحدى المصحات، إذا

كان قادراً على الوقوف. وان كان ثرياً فيُرسل إلى مدن المياه المعدنية ويُفضل تلك التي يحتوي ماؤها على الحديد مثل حمامات بوربون في فرنسا (Bourbonne les bains) ، ومياه مونـدور (Mont-Dore) بفرنسا أيضاً ، ومياه مارينباد (Marienbad) بالنمسا وغيرها .

وإذا كانت المريضة من عائلة متوسطة الحال فالمكث في الأرياف تعتبر كافية . ومهما يمكن من الأمر، فيجب على المصاب أن يعيش في الهواء الطلق ما استطاع الى ذلك سبيلا ؛ ويتجنب تعب الجسم ولبس المشد والملابس الضيقة . أما من ناحية الغذاء ، فيجب أن يكون وافراً ، وتكافح قلة الشهية باختيار الأطعمة المتنوعة والمغذية ، ولا سيما التي تحتوي على الحديد . فسبب الكلوروس كما قلنا هو نقص مقدار الهيموجلوبين في الدم . وهو مادة زلالية تتميز عن سواها من المواد بارتفاع نسبة الحديد فيها ، فنقصه يعني في الوقت نفسه فقر الدم من الحديد الغذائي .

وقد دلت الاختبارات العديدة على أنه يمكن التوصل فعلاً الى تعويض نقص الهيموجلوبين في الدم وشفاء المريض باستعمال أطعمة غنية بالحديد كالبيض والبقول الخضر واللحوم والبطاطس والفطائر والمعجونات الغذائية . وأفضل البقول الخضر الحاوية الحديد هي الاسفاناخ والبطاطس والتاسوليا البيضاء والجزر والعدس والبسلة . ومن الأثمار : الكرز الأسود والأحمر والتفاح والتوت الافرنجي والبندق . ويأتي منها في الدرجة الثانية الخوخ والعنب والتين والكرز والتوت الشوكي framboises . ومن اللحوم : لحم الثور في الدرجة الأولى ثم لحوم الحيوانات الأخرى ، ودم الخنزير (بشكل مقانيق boudins) أو مثيل ragoûts . وأفقر المواد الغذائية بالحديد : بياض البيض والأرز ودقيق الحنطة والشعير المقشور . ومن الحلويات : العسل والدبس . أما السكر فخال تماماً من الحديد . ويجب الاقلال من القهوة وتناول الشاي الخفيف وتجنب المشروبات الكحولية ، ويكون طعام المريض منوعاً .

وزبدة القول أنه من أهم الأغذية الموافقة للمصابين بالكلوروس هي البقول الخضر ولا سيما الاسفاناخ ، والبيض واللحوم والمقانيق والأثمار وخصوصاً التفاح ، والأثمار المطبوخة Compotes .

وهناك أيضاً الفين الحليب، وهذا يعد فقيراً جداً بالحديد ولا يصلح في علاج هذا المرض. وانا لا نقصد بذلك حذفه من قائمة طعام المريض، ولكن تناوله صرفاً لا يفيد هذا المريض شيئاً في مثل هذه الحالة ، والأفضل أن يتناول مضافاً إلى وجبات الطعام المعينة كشراب يقوم مقام الشاي أو القهوة ، وهو يوافق خصوصاً النتيات الضعيفات الهزيلات ، ويوخذ

منه إذ ذاك قدر ربع لتر في كل مرة وقت فطور الصباح ووقت الغداء ، ثم بعد الظهر ومساء بعد تناول العشاء . واذا عافته نفس المريض ورفض تناوله فيضاف اليه قليل من القهوة أو الشكاكاو أو الشكر بنك تسهيلاً لابتلعه . ويمكن أيضاً الاستعاضة عن اللبن الحليب ببيضتين بيضتين مضروبتين (محفرتتين) . وفي حالة ضعف الشهية أو فقدانها عند المصاب لدرجة أنه لا يستطيع أن يتناول لا اللبن الحليب ولا اللحوم ولا البيض ، فيمكن حينئذٍ إعطاؤه الأثمار والبقول أو بعض المستحضرات الغذائية الصناعية الحاوية للحديد بشرط أن يعود بعد مدة قصيرة وبالسرعة الممكنة الى الحمية الاعتيادية . وعلى كل يعمل على تحريض الشهية إذا كانت مفتردة أو ضعيفة باعطاء المريض قدحاً صغيراً من شراب شيري Sherry أو الفرموت Vermouth قبل الطعام ، أو أيضاً أحد الخمور المجيدة يتخلله عنصر فعال كالحديد أو كينا مع الحديد مثلاً التي أعطت غالباً نتائج حسنة .

ومن الضروري كذلك اعطاء الفتيات الضعيفات الناحلات أطعمة تحتوي على مقدار وافر من المواد الدهنية والكريما والزبدة بشكل (قطع خبز عليها طبقة سميكة من الزبدة) Tartines de beurre .

٢ — ﴿ العلاج الخاص للخلوروس ﴾ : أخص الأدوية المفيدة في هذا الداء بعض مستحضرات الحديد ، أو الكينا مع الحديد ، والزرنيخ وزيت السمك بحسب رأي الطبيب . ويجب أن نقول هنا إن الحالات الخفيفة لهذا المرض تشفى بفضل العناية الصحية والطعام الموافق . أما في حالاته الخطيرة فعدم استعمال مركبات الحديد الصناعية أو إهماله يعتبر خطأ كبيراً ، وقد برهنت تجارب الاطباء العديدة على أن الحديد لا يجارى في علاج هذا المرض ، وانه من الأدوية القديمة النادرة التي هي فوق كل ذم أو انتقاد .

ويمكن أيضاً اعطاء الحديد نفسه في حالات الداء الخفيفة ، وتوجد الآن مستحضرات منه لا تؤذي قط المعدة ولا الأسنان . فتنتخب الوصفة الطبية من مركبات الحديد بحسب حالة المريض الصحية ، وخصوصاً بحسب صدته ، وحالته المالية ، وأفضل مستحضرات الحديد الحالية ، وأرخصها ثمناً وأشدها مفعولاً هي بلا منازع تلك الحبوب القديمة المسماة « حبوب بلود » pilules de Blaud التي تؤخذ مع قليل من الخبز بعد الطعام . ومن خواص هذه الحبوب أنها لا تسيء ولا تثقل على المعدة . ويمكن أيضاً في حالات المرض الخطيرة إعطاء المصاب ، عدا الحديد ، بعض مركبات الزرنيخ بحسب استحسان الطبيب .

بيروت الدكتور عبده حداد

الضوَيْعات

آخر كلمة فيها

لم يتسنَّ لي أن أتصفح أجزاء المقتطف الأخيرة لأني كنت منكوباً بأكزيما في الجفون أفضت معالجتها عرضاً الى كارثة في العين اليمنى طرحتني في جحيم من آلام لم يذق أيوب مثل بعضها . فكنت كالطير يرقص . . . وقضيت بضعة أسابيع في زاوية مظلمة كأنها زنزانة المجرمين . وانقطعت عن العالم الخارجي . وبقيت في عالمي الداخلي تتداولني الأفكار السوداء . وقد تداركني نابغة طب العيون الأكبر الوحيد في الشرق والغرب سعادة الدكتور محمد صبحي بك . فعانى في معالجتي طويلاً وكانت أوامره الصارمة تحظر عليَّ رؤية الضوء بالعين السليمة لكيلا تتأثر العين العليلة . بل كان يرغب في أن تكون كلتا عيني معصوبتين لكيلا تتحرك العليلة في محجرها بتحرك السليمة — جحيم آلام متوالية — وقى الله منها العدو قبل الصديق . وأثاب الله الطبيب العبقري خيراً وعافية وعمراً طويلاً .

والعجيب أنه في اثناء آلامي أوحت أنامله الرؤوفة لقريحتي الخاملة هذين البيتين أسجل بهما فضله العظيم وشكري الجزيل .

أأمل صبحي أم بنان ابن مريم ... عشت على عينيك بغية طبيبك

فكانت اذا ما أسود ليلي مُوحِشاً ... تصيِّرُه صبحاً فآمنت صبحي بك

وأخيراً حملني ملل هذا السجن المظلم أن أعصى أمر الطبيب خلسة ، وقد قاربت الشفاء ، وأستعمل العين السليمة أوقات متباعدة لكي أقرأ ما نشره المقتطف من نقد لما كتبته فيه عن الذرة في الآونة الأخيرة .

وكأن ما كتبته كان حافزاً لعالمين : الأستاذ فؤاد جميعاز من القدس والأستاذ جريس الشرايحه من السلط (شرق الاردن) أن يدليا بمعلوماتهما القيِّمة . فكان بعضها في صميم الموضوع وبعضها في ما اتصل به أو تفرَّع منه . ولا يخفى أن جميع المعلومات الطبيعية مرتبطة بعضها

بعض . ولا ريب أن في نشرها فوائد كبيرة لي وللقراء .

والمفهوم من مقال الأستاذ فؤاد جبران أنه تخصص في العلوم الطبيعية وهذا يتكلم كمعلم يلقي دروساً على طالب. وأما أنا فكما قال في خاتمة مقاله لست متخصصاً . بل أنا بالحقيقة طالب علم حبًّا بالعلم . ولم أتخصص إلاَّ في فن الصيدلة . وكنت في تلك الأيام في شبه بؤس لا يتسع لي المجال لتحصيل العلم . فلا أب لي ينفق ولا ثروة أستعين بها إلاَّ الاجتهاد وتهريز الصبي وهو الشباب . فأمكنني بمعونة الله أن أحصل على دبلوم صيدلة من كلية بيروت الأميركية (لم تكن جامعة حينئذٍ) في مدة ثلاث سنين وهي كل مدة دراستي المدرسية . واضطررت أن أتعلم اللغة الانكليزية بنفسي في البيت ولا معلم لي سوى قاموس أبكاريوس وكتاب الطوالع السعدية في تعليم اللغة الانكليزية وكتب القراءة الانكليزية، إلى أن حصلت من هذه اللغة ما يمكنني من دخول الكلية .

أجل يا سيدي الاستاذ لم أكن متخصصاً ولم ينحني الحظ العاثر المقدرة على التخصص . ولكني قضيت الى الآن ٤٤ سنة أطالع وأدرس ، وترى في قائمة مصادر كتابي النسبية بعض الكتب التي طالعتها مراراً فضلاً عن عشرات وعشرات غيرها من مؤلفات العلماء في هذا القرن . وآخر ما طالعته من الكتب عن الذرة ثلاثة صدرت بعد إلقاء القنبلة الذرية في اليابان . وأهمها وأقواها حجة كتاب «الطاقة الذرية» الذي أصدرته وزارة الحرب الأميركية تأليف العلاَّمة سميث رئيس قسم الطبيعة في جامعة برنستون . وكان عضواً في إحدى اللجان العلمية المشتغلة بمباحث الذرة وباصطناع قنبلتها . كتبه تلبيةً لطلب الماجور جنرال جرفس في الجيش الأميركي. وكان هذا القائد مشرفاً من قبل وزارة الحربية على أعمال العلماء والفنيين في اصطناع القنبلة . ولا بد أن علماء الذرة والقنبلة قد اطلعوا على هذا الكتاب ووافقوا عليه ، فطبعته الحكومة الأميركية . وهو تقرير عام شامل عن المباحث في الذرة وعن التجربات العملية والأعمال في معامل القنبلة . وصرَّح هذا المؤلف أنه أغفل منه أسرار صنع القنبلة وكيفية اطلاقها لأنها محفوظة في مستودع معامل القنبلة . فهذا الكتاب يُعدُّ الآن حجة وأعظم ثقة وإليه المرجع الأخير .

فما كنت أكتبه في هذا الموضوع كان مما رسخ في ذهني من هذه المطالعات العديدة

المتكررة من المعلومات الضئيلة التي حصلتها . فلا أستطيع أن أدعي العالمية (بكسر اللام) ولا أن أدّعي العصمة فيما كتبت — العصمة لله وحده .

وإذا كان كبار العلماء يختلفون كثيراً في نظريات علمية فلا بدع إن صمائيك العلم من أمثالي (لا أحسب الأستاذين جريس الشرايحة وفؤاد جيعان منهم ! يختلفون تبعاً لاختلاف العلماء الذين أخذوا عنهم .

من أمثلة اختلاف أساطين العلماء حتى اليوم عقيدتهم في ماهية النور . فقال بعضهم كما قال نيوتن إنه ذريرات تنبثق من الجسم المنير الى جميع الجهات في اتجاهات مستقيمة . ولما ثبت لهم أنها تنتشر بشكل موجات ذات مرتفعات ومنخفضات فرضوا الأثير لتعليل موجاتهم وبعضهم جحدوا الأثير . وانيشطين لم يجحده بتاتاً بل أعرض عنه وقال انه يستغني عنه في نسبيته . وقال بعض العلماء : « لا يمكن أن نستغني عن الأثير لتعليل بعض الظاهرات العلمية كالتداخل النوراني » وقال بعضهم : ماذا يمنع أن يكون النور ذريرات تنطلق في اتجاهات موجية ، يعني ذريرات تسير متموجة . والسير تجاذبي تجيز من هذا الرأي وقد صاغ له كلمة Wavicle من كلتي wave particle . ولم يزل انطلاق النور أو الموجات الكهرطيسية في الفضاء الخالي موضوع تخمين وحيرة لأن العلماء لم يهتدوا حتى الآن الى نظرية تتعلل بها جميع ظاهرات الطبيعة .

وما يختلف فيه العلماء الى الآن حقيقة النيوترون في الذرة . فمنهم من يقول انه بروتون خالي الشحنة الكهربائية ، ومنهم من يقول إنه بروتون إيجابي يصاحبه الكترون السلبي الشحنة ، فتعادلت شحنتهما وأصبحا كأنهما بلا شحنة . ولكن يعترض على صحة هذا القول أنه اذا اصطحب بروتون الكتروناً تجاذبا وتصادما وتنافت شحناتهما جميعاً وتفتتا الى فوتونات خالية الشحنة ذات طاقة . إذن النيوترون على كل حال ذريرة صماء لا شحنة فيها . وأخيراً قيل انه كان في الأصل بروتوناً . ولعارض ما انسلخت منه ملحة بوزن الالكترون وأخذت معها شحنته الايجابية فبقي بلا شحنة فسموه نيوتروناً .

وهناك نظريات أخرى يختلف فيها العلماء الى الآن فلا بدع أن نختلف نحن فيما اختلفوا فيه ونحن آخذون عنهم . وفي كتاب « الطاقة الذرية » الذي طبعته الحكومة الاميركية ،

وقد أشرت إليه آنفاً : بعض نقط اختلاف في تعليلها بعض العلماء الذين كانوا يبحثون ويجربون ويصلون .

ليس في إمكاني أن أختصر مقال الاستاذ فؤاد جيمان وأناقش في كل نقطة منه إما إذعاناً أو تفنيداً أو جحداً . لأني في حال لا أستطيع معها أن أراجع مصادر إلا اضطراراً . فأكتب الآن اعتماداً على ما رسخ في الذهن من المعلومات بعد تكرار المطالعات .

يستهجن الأستاذ جيمان قولي بوحدة الطاقة والمادة ونسبتها الى أينشطين . وأنا لا أزال أصر على هذا القول . وهو يحجني فيه بخطاء في ترجمتي عبارة من كتاب «الكون الغامض» تفيد معنى الوحدة . وكذلك لا أزال أصر على ان فحوى ترجمة العبارة تطابق فحوى العبارة الذي عناه تجيز على اعتبار أن الطاقة والمادة شيء واحد كما قال اينشطين . ولعل الأستاذ يستنكر أن استعمل « القوة » بدل « الطاقة » . وقد اعتمدت ان استعملها لكل معنى من معاني القوة كالطاقة Energy والقوة المحركة Force والقوة المضمرة أو الكامنة Potentiality والقوة العامة Power لظني أن جانباً كبيراً من القراء لم يتخصصوا لمعرفة الفروق بين هذه الأسماء وما هي إلا أسماء متنوعة لتنوعات الحالات التي تظهر فيها القوة كما نفهمها بلغتنا العربية . فلا يحق لك أن تقول لمعاني القوة غير الطاقة إلا إذا أفهمته اختلاف حالتي القوة . كلتاهما قوة وانما الطاقة قوة مخزونة وتدل على مطلق وجود القوة من غير نظر إلى أحوالها المختلفة .

ثم يقول الأستاذ بشبه حدة « لست أدري من أين أتى بهذا القول وفي أي مكان أو زمان قاله اينشطين ؟ » وبهذا التساؤل يعتقد الأستاذ ان ما لم يقرأه ولم يطلع عليه لا وجود له في كتاب ولا قاله قائل، في حين أن هذا القول أشار إليه بعض العلماء منسوباً إلى اينشطين . والحق يقال ان هذا القول لا يدخل في العقل كأكثر نظريات اينشطين لأن تصورها صعب أو متعذر . واينشطين في نظرياته لا يعتمد على التخيل والتصور في فهمها أو تفهيمها بل على العمليات الرياضية . ولعل الأستاذ جيمان إذا طالع ما لم يطالعه بعد من كتب حول العلم الحديث يعثر على النظرية . قد يعثر عليها في كتاب « العوالم من حولنا » لسير تجيز أو في غيره من مؤلفاته أو في بعض كتب النسبية أو في كتاب برتران رسل A. B. C. of Relativity . ولعل اينشطين قاله في سياق الكلام عن الفوتون الفوتون مادة مندفعة في الفضاء

بقوة. فأين هذه القوة التي تدفعه ؟ هي فيه ومنه وهي هو اذا جردناه منها أو جردناها منه أصبحا عدماً. هما كالأحمر والحمرة شيء واحد ، فلا ينفصلان إلاَّ نفوذاً بحتاً ومجرداً. واذا سحقت الأحمر سحقاً دقيقاً وجلت كل ذرة منه حمراء مهما بالغت في السحق . فالشيء واحد ذو مظهرين مادة ولون . بهذا الاعتبار قال اينشطين ان القوة والمادة شيء واحد كما قال ان الزمان والمكان شيء واحد .

نعود الى العبارة التي ترجمتها من كتاب الكون الغامض لتجيز. فاذا شاء الاستاذ التنقيق فليسمح لي أن أقول له عبارته ان تصحيحه لترجمة تشويه للحقيقة اذ قال ان تجيز قال : « تنطلق طاقتيهما المشتركة كومضة اشعاع » لأن كلمة mingled لا تعني « مشتركاً » كما صحح بل « مزيجاً » .

وأغرب نظريات اينشطين ان المادة كلما عجلت أي تسارعت ازدادت كتلتها لأنه يخالف المشاهد المألوف عند البشر ، على انه يؤيد نظريته في وحدة المادة والطاقة. وقد يكون قائله اينشطين في رأي الاستاذ جيمان أكبر مجانين هذا العصر . ولكن بكل أسف قاله وما هو بمجنون . وأظن — وبعض الظن إثم — انه قاله للاعتبار التالي : المادة تعجل بازدياد القوة التي تدفعها أو تعجلها بالتكاثف . فالمادة تزيد كتلة لأن القوة التي تدفعها زادت . فكأنَّ (وكأنَّ غير أن) الكتلة تولدت من القوة أو الطاقة المتجمعة . فلا بدع أن يكونا شيئاً واحداً أو من طبيعة واحدة . وهو موضوع عويص جداً ليس لمثلي أن يفسره . وهنا قد يحتد الاستاذ ويسأل : « من قال هذا وأين قرأته » أقول قاله اينشطين وجاراه العلماء فيه .

ومعظم نظريات اينشطين مستغربات كاندماج الزمان والمكان فيسميهما معاً «مكان ـ زمان» لا «زمان ومكان» وقد اختصرتهما في كتابي النسبية بكلمة «زمكان» فهو يحسبهما شيئاً واحداً. وقد سبقه بعض العلماء الى هذه النظرية. ولا ريب في أنهما شيء واحد بمعنى أن الزمان مقياس حركة المادة في المكان . فلا تستطيع أن تجرد المكان من الزمان ما دام في المكان مادة تتحرك فيه مستغرقة مدة... لا تستطيع أن تتحرك في المكان من غير أن تقضي مدة. هل تستطيع الطائرة أن ترحل من القاهرة الى القدس إلاَّ في زمان معين؟ فرحلتها أشملت الزمان والمكان معاً.

كذلك الفوتون لا يندفع إلاَّ بقوة فيه . كلاهما بهذا الاعتبار شيء واحد .

وكذلك حسب اينشتاين الزمان رابع الابعاد الطول والعرض والعمق . والمستغرب في هذا القول ان الزمن من صنف غير صنف هذه الابعاد . فكيف حسبه أحدها ؟ ما شأن الزمان مع الطول والعرض والعمق ؟ شأنه أن الزمان مرتبط بالمكان كما تقدم القول. فالجسم المتحرك في المكان بابعاده الثلاثة يتحرك في زمان، فأصبح الزمان بعداً رابعاً.

ومن مستغرباته ان الجسم كلما أسرع تقلص حتى اذا بلغت سرعته سرعة النور فني أو اضمحل أو بالاحرى اختفى . وهذه النظرية يمكن تفسيرها بسهولة اذا روعي مكان الراصد الذي يرقب الجسم المسرع . وليس هنا محل تفسيرها

يستعين الاستاذ جيمان بمقدار (Quantum) بلانك في جعد نظرية وحدة المادة والطاقة. والذي فهمناه من نظرية « الكوانتم » ان الحركة ليست استمرارية منسابة انسياباً بل هي متقطعة قطعاً قطعاً متساوية. أي الجسم لا يسير في طريقه انسياباً بلا توقف بل يثب وثبات متتابعة . وبلانك اكتشف مقادير هذه الوثبات . فهو لم يتعرض لنفس الطاقة ، بل تعرض للحركة الناجمة عنها من حيث الكم لا من حيث الكيف .

الى الآن لم يكتشف العالم ما هي الحقيقة الطبيعية للطاقة وانما اكتشف كميتها من حيث الحركة الصادرة عنها وتنويعها في حالاتها المختلفة .

وقد صدق الاستاذ جيمان بأنه يحس أو يلمس القوة بعملية رياضية . فهذا لمسٌ أو حسٌ عقلي يا أستاذ. ولكن ما هي الطاقة أو القوة منفصلة عن المادة ؟ هي لاشيء . لا يمكن أن تنفصل الطاقة عن المادة. هما شيء واحد . لا يمكن بلانك أو اينشتاين أن يفسر هذا السر الغامض في المادة . وإذا جعلنا نتأثر الطاقة من موضع الى موضع بلغنا أخيراً الى الجاذبية فهي ينبوع القوة . ولكن ما هي الجاذبية ؟ لم يقل لنا السير اسحق نيوتن ماهي . وإنما قال لنا ما هو قانونها . هي سر الله في الكون ، هي يد الله التي تدير الاكوان .

والعلماء الذين يتكلمون عن « المقدار » (كوَنْتُم) يتكلمون عنه تارة بأنه الفوتون وأخرى بأنه طاقة. كأنَّ الطاقة والفوتون مترادفان لمعنى واحد .

والاستاذ جيمان ذكر مثل هذا في قوله : « بحسب نظرية بلانك الطاقة أو الفوتونات أو المقادير الضوئية هي $E = hv$ وفي هذا النص الصريح الطاقة والفوتونات (وهي مادية)

والمقادير الضوئية Quantums مترادفات لشيء واحد. وهذا القول يزيد وحدة المادة والطاقة.

« من ذلك أدينك يا إنسان » . عفواً يا أستاذ الديونة لله وحده . وإنما هي عبارة مقتبسة من الانجيل جاءت في محلها هنا

بعد هذا البيان أصبحت جميع نقدات الأستاذ (ما عدا حدته ونحوها) مردود عليها من غير تعيين. والقارىء اللبيب يفهمها اذا راجع المقالين. ويمكنه أن يعلم من منا مشوه الحقائق.

بقيت ملاحظة صغيرة وهي أن الاستاذ يقول في وسط الصفحة الثانية من مقاله « إن الذرات مركبة من الكترونات وبروتونات وبوزترونات » ولعله يريد أن يقول نيوترونات بدل بوزترونات فكانت هفوة قلم . الذرة يا أستاذ مؤلفة من بروتونات ونيوترونات في النواة والكترونات (ما عدا الهيدروجين الخفيف فليس فيه نيوترونات) . وأما البوزترون فليس من بنية الذرة بتاتاً بل هو هفوة من البروتون انسلخت منه مختلسة شحنته الايجابية في إثناء العمليات العلمية وربما في أثناء انفجار ذرات العناصر الشاعة كالراديوم . ويقال إنه وجد في الأشعة الكونية وكتلته بقدر كتلة الالكترون وإنما شحنته إيجابية .

وقد استحدثه الأستاذ أندرس من معهد التكنولوجي في كاليفورنيا منذ سنة ١٩٣٢ . وكوري وجوليو وجدا أن الالومينيوم ينفث بوزترونات اذا قذف بذريرات الفا من الراديوم وهو قصير العمر جداً . ومتى انسلخ البوزترون من البروتون يتركه بلا شحنة كهربائية فيصبح هذا نيوتروناً . ويقولون إن البوزترون نفسه اذا انضم إليه بوزترون يصبح بروتوناً .

هذه نظرة عامة في مقال الأستاذ جيمان اذ ليس في الامكان الوقوف عند كل نقطة لكي أشير الى ما فيها من التمويه للحقيقة والى ما فيها من الصواب الذي استفدته منه . فشكراً له .

أما الأستاذ الشرايحه فليس أقل من الاستاذ جيمان تحقيقاً وتعليماً وإفادة . ولا أرى لزوماً للاسترسال في مناقشته لئلا تصبح المناقشة قلم وقلنا وقلتا وقلتم . وما كتباه كفاية للقراء وفيه كثير من الفائدة لهم ولي ، وقد اطلعوا على قولينا فلهم أن يحكموا بما له وبما علي .

وهو يعاتبني على كلمة « يخلط » وقد راجعت الجملة التي وردت فيها فوجدت أني لم أعبر بما فهم بل عنيت يمزج أو نحو ذلك . ومع ذلك أعتذر له إذا كانت الكلمة قد ساءته

وإنما لا يسعني أن أغفل قضية السكر التي حظي بها . فهو يرى انه قبض علي متلبساً بالجريمة وحكم علي حكماً صارماً إذ ألقى علي المسؤولية حتى ولو كان الخطاء مطبعياً

بالطبع ليس الخطأ مطبعيًّا فقد قلت إن السعر هو ارتفاع حرارة الكيلو جرام من الماء درجة واحدة . وفي يقين الأستاذ هو جرام فقط . ولا يمكن أن أكون قد استنبطت هذا التعريف للسعر استنباطاً . لا بد أن أكون قد قرأته في كتاب ، ولكن أي كتاب ؟ لا أتذكر . وأن أعود للبحث والمراجعة فهو أمر يطول بحثه ولم يكن في امكاني فاستعنت لحكمه . ولكن بقي الأمر يشغل بالي . وبالأمس قلت لنفسي لماذا لا أستفتي معجماً . فتناولت قاموس وبستر طبعة شركة مريم وشركاه في سبرنغفيلد من ولاية ماستشوستس في أميركا طبعة سنة ١٩٠٩ . وقد اختصره بعض ثقات في اللغة من قاموس وبستر العالمي الكبير لكي يستعين به طلبة الجامعات والكليات — واذا فيه نص صريح على السعر . أنقله بحروفه وفوصيه :

'Calorie-Amount of heat equal to the amount required to raise the temperature of one kilo gram (sometimes one gram) of water one degree centigrade

وترجمته : السعر هو وحدة حرارية تساوي المقدار اللازم لرفع حرارة كيلو جرام (وأحياناً جرام واحد) من الماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد .

ولا يخفى أن وضع (جرام واحد) ضمن قوسين يدل على أن الكيلوجرام أصيل والجرام دخيل . وبعد هذه الشهادة الصادقة صرت أرجو من الأستاذ الشرايحة ان يصدر عفوه عني ، ويلقي المسؤولية على قاموس وبستر أو الأساتذة الذين اختصروه من قاموس وبستر الكبير لفائدة طلبة الجامعات .

بقي على الأستاذ ان يدل القراء على الحالة التي يكون السعر فيها بالكيلوجرام والحالة التي يكون فيها بالجرام . وله الفضل على كل حال .

هذا آخر ما أكتبه في هذه المناقشة وليس في امكاني العودة الى كلام آخر . وإني أشكر للأستاذين جبعان والشرايحه مناقشتهما فقد فيها فائدة لي وللقراء . والسلام عليهما .

أرجو من حضرة العلامة الأستاذ اسماعيل بك مظهر رئيس تحرير المقتطف أن يسمح لي بتنبيه القراء الى اقتضاب وقع في وسط صفحة ٦٤ من كتابي جاذبية نيوتن الملحق بمقتطف يوليو . وهو « مساحة سطح الأرض ومساحة سطح المشتري » . والمراد مساحة سطحي فلكيهما الكرويين كما هو مفهوم من سياق الكلام قبل هاتين السطرين . والأمر لا يخفى على اللبيب .

نقولا الحداد

المجمل في اللغة

لابن فارس — مخطوط

عثرت فيما عثرت عليه من الكتب المخطوطة النفيسة على كتاب المجمل في اللغة لابن فارس وهو كتاب قيم طالما ذكره صاحب اللسان والفيروزابادي والزمخشري وأشاروا منه واستقوا من ينابيع معينه الصافية وطالما تحدث عنه الرواة والمؤرخون ولا أستطيع أن أشرح مبلغ سروري حين عثرت عليه وطالعت أقلبه بين يدي وقد كنت نحواً من خمسمائة مجلد من المخطوطات فما بلغ سروري بها المبلغ الذي وصلت اليه بهذه النسخة.

الكتاب جميل جداً ومشكول بصورة متقنة حتى لا يكاد القارىء يعثر فيه على خطأ في القواعد ولا على خطأ في الشكل وهو بالقلم النسخي الصحيح وكأنه كتب بقلم واحد من أوله الى آخره لم يغيره الكاتب حتى أتى على آخره ولعلّ هذه النسخة هي الوحيدة ضبطاً واتقاناً.

***

يقع المجمل هذا في خمسمائة وإحدى وعشرين ورقة أي في الف ومائتين وأربعين صحيفة الجزء الأول منه في أربعمائة وتسعين صحيفة والثاني في خمسمائة ومائتين وخمسين صحيفة وكلاهما في مجلد واحد لا ينقص حرفاً واحداً فلم تصل اليه يد الزمان بالبلى والفساد على طول العهد وتكرار الليالي. الأول يبتدىء بباب الألف وينتهي بباب الفساد والثاني يبتدىء بباب الضاد وينتهي بباب الياء وما بعدها مما هو على ثلاثة أحرف. الكتاب من كتب المكتبة العثمانية الحلبية تحت رقم ٨٣٩ من القطع الوسط طوله ٢٥ سانتيم وعرضه ١٧ س وعمقه أو سمكه ٩ س وطول المكتوب من كل صحيفة بعد ترك الحاشية ١٨ س وطول السطر المكتوب ١١ س والصحيفة تشتمل على تسعة عشر سطراً والسطر يحوي نحواً من اثنتي عشرة كلمة والكلمة التي يراد شرحها والبحث عنها كتبت على الهامش بالقلم الأحمر.

وقد كتب على ظهر الصحيفة الأولى ما نصه:

الأول من كتاب مجمل اللغة تصنيف أبي الحسين احمد بن فارس الرازي رحمه الله وأول الصحيفة منه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد وليك الله بعصمه وجعلك ممن علت في الخير همته وصحت فيه طويته فانك لما أعلمتني رغبتك في الأدب ومحبتك لمعرفان كلام العرب وإنك تسامحت الأصول الكبار فرأيتك ما أبصرته من بعد تناولها وكثرة ابوابها وتشعب سبلها وخشيت ان يلتبك ذلك عن مرادك وسألتني جمع كتاب في ذلك يذلل لك صعبه ويسهل عليك وعره أنشأت كتابي هذا مختصراً من الكلام قريب يقل لفظه وتكثر فوائده ويبلغ بك طرفاً مما أنت ملتمسه ومنيته مجمل اللغة لأني أجملت الكلام فيه اجمالاً ولم أؤكده بالشواهد والتعاريف لزادة الإيجاز. فمن مرائته قرب ما بين طرفيه وصغر حجمه ومنها حسن ترتيبه وفي ذلك توطئة سبيل مذاكرة اللغة ومنها أمن قارئه المتدبر له من التصحيف وذلك اني خرجته على حروف المعجم فجعلت كل كلمة أولها همزة في كتاب الهمز وكل كلمة أولها باء في باب الباء حتى أتيت على الحروف كلها فاذا احتجت الى الكلمة نظرت الى أول حروفها فالتمستها من الكتاب الموسوم بذلك الحرف فانك تجدها مصورة في الحاشية ومفسرة من بعد فأولها كتاب الألف.

باب الألف وما بعدها في الذي يقال له المضاعف.

وقد تسمى الألف ها هنا همزة.

وآخر الجزء الثاني ما نصه:

وهذا آخر مجمل اللغة فاحفظه وتدبر ترتيب أبوابه واعلم إني توخيت الاختصار كما أرغب وآثرت الايجاز كما سألت واقتصرت على ما صح عندي سماعاً ومن كتاب صحيح النسب مشهور ولولا توخي ما لم أشكك فيه من كلام العرب لوجدت مقالاً ولكني عمدت للأصول التي أحميتها في كتابي فجمعتها فيه بأوجز قول وأقربه ورجوت أن يكون هذا المختصر كافياً في بابه مستغنياً في معرفة صحيح كلام العرب وما يتداوله الناس من غريب القرآن والحديث وكثير من غريب الشعر عن غيره وكل ما هذ من كتابنا هذا من محاسن كلام العرب والألفاظ التي يستعان بها في الأشعار والمكاتبات فقد ذكرناه في الكتاب الذي سميناه (متخير الألفاظ) والله أسأل أن يوفقنا وإياك لكل صالحة ويعيذنا وإياك من السوء كله.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

***

وقع الفراغ من نقله غرة جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحم الله من دعا

لكاتبه بالرحمة

لم أجد في آخره اسم الناسخ جرياً على عادة النساخ بل جاءت هذه النسخة خلواً من اسم الناسخ كما رأيت.

ولم أجد على ظهر الكتاب ما يصح أن يذكر سوى هذين البيتين نسباً الى صاحب المجمل وهما.

مرت بنا هيفاء عبدلة ركبية تنمى لتركي
ترنو بلحظ فاتر فاتن أضعف من حجة نحوي

وهذان البيتان ذكرهما ابن خلكان في ترجمة ابن فارس وذكر له قطعة تدل على ما كان يلازم نفسه من همّ مبرح وانه كثيراً ما لم يصل الى ما يحتاجه وقد لزم دفتره وكتابه ولم يفارق سراجه الذي يستضيء به في أثناء مطالعته وكتابته ولم يجد له أنيساً في ليالي الغربة هذه سوى همّته التي كان يأنس بها إذا ما جن ليله وخلا بكتابه وهي.

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضي حاجة وتفوت حاج
اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي همّتي وأنيس نفسي دفاتر لي ومصباح السراج

ويقول ابن خلكان كان ابن فارس إماماً في علوم شتى وخصوصاً اللغة فانه أتقنها وألّف كتاب المجمل في اللغة وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً وله كتاب حلية الفقهاء وغيره انتهى الحريري وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات وله شعر حسن انتهى.

ويذكر جرجي زيدان في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٩ إنه توجد نسخ خطية من كتاب المجمل في برلين وغوطا وليدن وباريس والمتحف البريطاني وأكسفورد وبيي جامع وكوبرلي وفي كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية نسخة في مجلدين كبيرين صفحاتهما نحو ١٣٠٠ صفحة خطية.

* * *

هذا وقد كان أخي العلامة السيد محمد سعيد العسّاني مفتي حماه عالاً ذهب او سيعز قبيل الطبع العامة وباشر نسخ كتاب المجمل هذا من المكتبة الخديوية. (بعد أن تم بطبع التصريف الملوكي) يريد طبعه ونشره بعد ضبطه ووضع حواشٍ عليه ثم حدث له ما شغله عن عزمه فنقل راجعاً الى حماه والنسخة هذه تحت رقم ١٨ لفتح خصوصية عمومية ٤٦٨٤٨ جاء في آخرها ووافق الفراغ منه يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الى يوم الدين.

ويحسن بي أن أذكر صورة عنوان هذه النسخة وهي :

الجزء الأول من كتاب مجمل اللغة تأليف الشيخ أبي حسين أحمد بن فارس بن زكريا رحمة الله عليهم .

قرىء على الأجل العالم شرف الدين أبو الحسن الأشرف بن يحيى بن محمد بن أبي السعود العلوي أدام الله تأييده ونفعه بالعلم جمع هذا الجزء من مجمل اللغة ومارضته بأصلي قراءة ضبط وتصحيح ومعرفة وعلم . قرأته على الشيخ الامام العالم أبي الحسن علي بن عبد الرحيم اللغوي المعروف بابن القصار رحمه الله وخبرني أنه قرأه على نسخة حجة الاسلام أبي منصور موهوب بن احمد الجواليقي رحمه الله وأخبره أنه قرأه على شيخه ابي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي تصحيحاً وأخبره انه أجازه له الفقيه سليم بن أيوب الرازي وكان نقله منصوراً وأخبره أنه قرأه على أحمد بن فارس مؤلفه بالري وسمعته يقرأ على شيخنا حجة الاسلام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد الخباب رحمه الله فرواه لنا عن الشيخ المصري أبي دلف هبة الله بن محمد بن علي بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي عن أبي القاسم سعد بن علي الزنجاني الفقيه عن القاضي أبي عبد الله الدياجي وأبي الفرج الفارسناني عن ابن فارس . وكتب مصدوق بن صبيب بن الحسن بخطه في ثاني عشر جمادى الأول سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

* * *

وقد وجدت ورقة ملصقة في هذه النسخة من المجمل ما صورتها بالحرف : هذه الجزازة وضعت في الكتاب تبياناً لما يأتي على حواشيه من علامات يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى ما على الحاشية مكتوب نسخه س أو خ ش فهو نسخة السماع وما يكون في الأصل أو على حاشيته لا الى د فهو غير السماع وقد يقع في نسخ ذكره وما يكون في ج في حاشية وما يكون على الحاشية خط زك فهو بخط أبي زكريا التبريزي وما يأتي بخط ش ج فهو بخط هبة الله بن الشجري العلوي النحوي — وما يكون خ فهو من نسخ وقع الاعتماد على صحتها وعلى الحواشي بخط ج أشياء لم يذكرها أحمد بن فارس رحمه الله انتهى وتوجد أيضاً نسخة في الدار المذكورة مخطوطة سنة ٥٦٥ ه بها تقطيع ونقص من آخرها تحت رقم ٣٨٢ .

وتوجد من قطعة في الدار المذكورة مخطوطة بخط قديم بها تقديم وتأخير تحت رقم ٢٣٨ وقد وقع الاستاذ السيد أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق على نسخة من كتاب المجمل في مدينة حماه في بيت آل لطفي وهي بقطع الربع تشتمل الصحيفة على خمسة وعشرين سطراً جاء في آخرها فرغ من انتساخها ... بن عبد الجبار في شهر ربيع الآخر سنة

ثمانين وثمانمائة غير أن هذه النسخة هاهنا مخرومة من أولها ومن وسطها وخطها وكذلك جدّ أو هي في مجلد واحد صغير .

وذكر لي أن في بيت الشطي في دمشق جزءاً من المجمل لم أبحث عنه .

وجاء في معجم المطبوعات أن طبع الجزء الأول من هذا الكتاب على نفقة محمد سامي المغربي ولم أطلع عليه.

ذكره صاحب كشف الظنون فقال مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني اللغوي المتوفى سنة ٣٩٨ اعتبر الأبواب في أوله والفصول في غيره كالمغرب والتزم فيه الصحيح والواضح من كلام العرب دون الوحشي والمستنكر وآثر فيه الايجاز وعليه كتاب مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي صاحب القاموس أورد فيه الف سؤال وأخذه عنه مع ثنائه عليه وحبه له وذكر البرهان الحلبي ان صاحب القاموس تتبع أوهام ابن فارس في المجمل في ألف موضع مع تعظيمه له وثنائه عليه .

* * *

ولقد كان أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري حريصاً جد الحرص على طبع كتاب المجمل هذا وهو الذي حرص سماحة مفتي حماه على طبعه ووضع حواش عليه حتى باشر بنسخه كما ابتدأ وكان يرغب أن تلحق بالمجمل الكلمات التي أغفلها ابن فارس كالكلمات الموجودة في ديوان الحماسة ونهج البلاغة ومقامات الحريري وخطب ابن نباته وغريب الصحيحين البخاري ومسلم. أما غريب البخاري فيوجد في مقدمة فتح الباري وغريب القرآن للأصفهاني . وأمهات دواوين الأدب وهي أربعة الكامل والأمالي والبيان والتبيين وأدب الكاتب :

وغريب الدواوين الثلاثة ديوان ابي تمام — والبحتري والمتنبي. هذا ولعل دار الكتب المصرية تقوم بطبع هذا الكتاب معتمدة على نسخة المكتبة العثمانية الحلبية هذه وغيرها في التصحيح فلا يستغنى عنها وان تعنى بالحاق الكلمات المغفلة من الكتب المذكورة وغيرها به وتنظر فيما أخذه الفيروزابادي على المجمل وتمحص هذه المآخذ وفي ظني اذا أخرج للناس في (ظل الملك فاروق ملك مصر المعظم) بحلته القشيبة وبطبعته الممتازة وفهارسه المتنوعة على الطريقة التي تنهجها دار الكتب في طبع النفائس كان الاقبال عليه فائقاً والنفع شاملاً ونقنا الله لأحياء آثار سلفنا الصالحة النافعة بمنه وكرمه .

حلب طاهر الزهاوي الحموي

بنو اسرائيل واليهود

وعلاقتهم بفلسطين العربية

شغلت المسألة الفلسطينية العالم كله تقريباً في السنوات الأخيرة ، واشتدّ الاهتمام بها في هذه الأيام .

ولا يعنيني في هذه المقالة شيء يتعلق بالسياسة ، ولكني أعني بالمسألة التاريخية فقط .

ومما لا شك فيه أن للصهيونية آراء متطرفة ، وآمالاً واسعة ، لعلها تشمل فلسطين وغيرها من التخوم المحيطة بها !

ذكر الأستاذ مصطفى مرعي بك المستشار في مقال له نقلاً عن كتاب فلسطين لليهود لمؤلفه ن . بنسونسن . ما يأتي « ان الحضارة اليهودية يمكن أن تمتد حتى تشمل جميع الأراضي التي تضمنها الوعد ، من البحر الأبيض إلى الفرات ومن لبنان إلى نهر النيل . فهذه هي معالم الأرض التي وعد بها الشعب المختار » .

ولقد استنكر بعض اليهود اخلاص آراء هؤلاء الصهيونيين وآمالهم ، وبعضهم هاجمهم بالفعل ولست أبالغ اذا قلت أن كثيراً من سوء الظن وعدم التجانس يقوم بين اليهود الشرقيين وبين الصهيونيين النازحين من أوربا وأميركا وكثير من هذا مبعثه احتقار وازدراء من الصهيونيين لليهود الشرقيين ، وتوجس من الشرقيين للصهيونيين المتغطرسين .

على أن الناحية التي تعنيني من الوجهة التاريخية هي صلة بني اسرائيل خاصّة واليهود عامة ، بفلسطين العربية ...

ولعله من المناسب أن نذكر هنا بعض آراء متطرفي الصهيونيين في دعوتهم الأحقية بفلسطين . قبل أن نثبت تاريخيًّا انه لا صلة لهم بها مطلقاً ، إلاّ صلة الدخيل الثقيل أو العابر اللّكيم !

فمن تلك الآراء الغريبة ما صرح به أحد زعماء الصهيونيين — جابوتنسكي — أمام لجنة هو

وهو يقول انه يجب أن تقوم في فلسطين أغلبية يهودية حتى تسود وجهة النظر اليهودية دائماً . ويجب أن تؤسس فيها دولة يهودية . وان تكون أراضيها وقفاً على اليهود يتصرفون فيها كما يشاءون لأنها بلدهم القديم .

ومثل هذه الآراء كثيرة متعددة نشرها ونادى بها عديدون من رؤوس الصهيونية في العالم .

ومن الكتب الكثيرة التي قرأتها أخيراً كتاب عنوانه دليل فلسطين قصد به واضعه الصهيوني المهاجر أن يكون دعاية لليهود في فلسطين العربية ، وتمجيداً لنهضتهم بها . . .

وقد لفت نظري كثير من الحقائق التي وردت في هذا الكتاب ، وهي تعتبر دعاية ضد اليهود لا لهم وضد مجندهم . فحق اليهود في فلسطين يشبه تماماً حقوق المسلمين في اسبانيا استعمرت فلسطين قبل التاريخ الحجري ، أي منذ مائتي ألف عام قبل الميلاد ، كما دلت الآثار الباقية التي فيها .

ونلخص بعض الحقائق التاريخية ، وبعض الاحصائيات الرسمية الحكومية ، فنرى ما يأتي :

(١) — لم يدخل اليهود فلسطين الا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، عند ما هاجمت قبائلهم الكنعانيين .

(٢) — ا — كان عدد العرب في عام ١٩٢٢ خمسمائة وتسعين ألف نسمة ، أي اكثر من ثمانية وسبعين في المائة من عدد السكان .

ب — كان عدد اليهود في نفس العام قرابة أربعة وسبعين ألفاً ، أي بنسبة أحد عشر في المائة من السكان .

ج — كان عدد المسيحيين العرب ثلاثة وسبعين ألفاً ، أي تسعة ونصفاً في المائة تقريباً ، من عدد السكان .

(٣) — ا — في سنة ١٩٤٠ زاد عدد العرب الى تسعمائة وثلاثة وأربعين ألف نسمة ، ولكن نسبتهم المئوية ضؤلت حتى صارت واحداً وستين في المائة من عدد السكان .

ب — ارتفع عدد اليهود فصار أربعمائة وستين ألفاً ، أي بنسبة ثلاثين في المائة من السكان .

م — صار عدد المسيحيين العرب حوالي مائة وعشرين ألفاً ، أي اضمحلت نسبتهم المئوية كنسبة المسلمين فصارت سبعة وثمانية أعشار في المائة من عدد السكان .

(٤) — ا — كان عدد الذين هاجروا الى فلسطين ما بين عامي ١٩٢٢ — ١٩٣٠ تسعين ألف صهيوني .

ب — ارتفع هذا العدد ارتفاعاً هائلاً ، ما بين عامي ١٩٣٠ — ١٩٤٠ فصار ثلاثمائة وثلاثين ألف نسمة .

* * *

ولسنا نعلم بالدقة كم هو عدد الذين هاجروا الى فلسطين منذ عام ١٩٤٠ حتى الآن ... ولكننا لا نكون مبالغين اذا قلنا أنه عشرات وعشرات الألوف !

ومن الطريف في أمر ذلك الكتاب اعتباره السامريين غير يهود ! فهو يضعهم في جانب الأجناس والأديان الأخرى ، غير العرب المسلمين . واليهود ، والمسيحيين العرب ، بذلك الترتيب المتقدم !

وبعد هذا الترتيب الغريب ، يحال المسيحيين الى أحد عشر عنصراً نصرانياً . وبأتي بعد ذلك أصحاب المذاهب الأخرى وأولهم : الدروز ، والبهائيون ، ثم السامريون ، فالوثنيون !

* * *

ولنتحدث الآن عن تاريخ دخول اليهود فلسطين ، وما هي حقوقهم فيها ، وصلتهم بها مستندين في ذلك الى كتبهم المقدسة أولاً ، وكتب التاريخ القديم ثانياً .

اليهود هم قوم (خابيرو) أحد الشعوب الآسيوية ، وقد نشأوا قبائل تائهة مشردة تحدرت من جنوب آسيا الشمالي الغربي ، وارتحلت ما بين شمال العراق والشام ومصر والحجاز حتى صار لهم بعض الشأن في مصر أيام يوسف الذي اشتراه فرعون مصر ، كما هو معروف. ثم جاء النبي موسى وهم مضطهدون بين المصريين فخرج بهم من مصر وظلوا ثلاثين أربعين سنة في التيه لا يعرفون لهم مقراً ولا بلداً ينزلون فيه . . حتى النبي موسى لم ير فلسطين .

فلما مات موسى عليه السلام وتولى يوشع أمر اليهود من بعده أتى بهم الى عبر الاردن ثم دخلوا أريحا بسيوفهم ومنها الى نابلس ثم صاروا يتعاملون في بلاد الشام تجاراً وصاناً بعد

السيف . ثم طغوا وبغوا وعصوا الله فسلط عليهم سوط عذاب فاستعبدهم الملك كوشان حاكم إحدى الممالك المجاورة . وخلصهم بعد ذلك أحد ملوكهم ولكنهم عادوا الى البغي مرة أخرى فهب عليهم أهل فلسطين الأصلاء ودحروهم واستعبدوهم أربعين سنة ، حتى قام في اليهود شمشون الجبار ، ولكن الفلسطينيين ، عوضوهم أيضاً وقبضوا على شمشون وحكايته معروفة ...

وظلت الحروب قائمة بين الفلسطينيين واليهود سنوات طويلة بعد ذلك ، حتى حكم الملك داود اليهود ، فانتقل الى القدس وفتح فتوحات كثيرة في فلسطين والشام وعمان وبلاد الأرمن . وحكم من بعده الملك سليمان الحكيم ، وجاء من بعده من الملوك اليهود فأقاموا في فلسطين ، حتى طردهم (سلناصر) الى خراسان ... ثم عادوا .

ثم جاء (بختنصر) الذي قبض على ملوكهم وأحرق القدس وهدم البيت الذي بناه سليمان الحكيم وأحرقه ودمر مدنهم و (أباد بني اسرائيل قتلاً وتشريداً وتعذيباً) ، وخلص فلسطين وبلاد الشام الأخرى منهم وأبقاها سليمة خالصة لأهليها الأصلاء ...

ويجدر بنا أن نذكر هنا بعض ما ذكره ابن مسكويه في تجارب الأمم : ان بعض اليهود الذين سلموا من مذبحة بختنصر هرب الى الحجاز ، وبعضهم الى مصر ، واستجار هؤلاء بفرعونها فطلبهم منه بختنصر قائلاً هؤلاء عبيدي فرفض فرعون مصر تسليمهم وقال ليس هؤلاء بعبيد ولكنهم قوم أحرار ... وكان ذلك سبباً في مهاجمة بختنصر لمصر وانتصاره عليها !

وعاد بعض هؤلاء الهاربين الى فلسطين ، ولكنهم شتتوا وأحرقت ديارهم كما خرب بيت المقدس مرة ثانية على يد طيطوس الروماني) ولكنه كان خراباً أبدياً لدولتهم ، فقد أزال ملكهم زوالاً لا رجعة بعده ونهب القدس وخرب البيت وأحرق الهيكل وأباد كتبهم ، وخلا المقدس منهم — كما يقول أبو الفدا — كأن لم يغن بالأمس ، ولم يعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم ، وأسر اليهود كلهم وتشتتهم عن آخرهم إلا من اختفى منهم أو كان شريداً في نطاح الأرض وبين مناكبها ...

وعادت فلسطين مرة أخرى خالصة لأبنائها الأصلاء . . .

وليس هناك أدنى شك في أن هؤلاء الذين أبيدوا هم اليهود الاسرائيليون ، أي بنو اسرائيل ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . . . قال أبو الفدا في تاريخه : « واسرائيل هو

يعقوب بن اسحق بن ابرهيم الخليل عليهم السلام . وكان لاسرائيل المذكور إثنا عشر ولداً وجميع بني اسرائيل هم أولاد الاثني عشر المذكورين » .

فهؤلاء هم الاسرائيليون ، وهم المنذرون تقريباً ...

وأما اليهود عامة فهم كما قال أبو الفدا نقلاً عمن تقدمه من المؤرخين : « . . . وأمة اليهود أعم من بني اسرائيل ، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوداً ولم يكونوا من بني إسرائيل ، وإنما بنو اسرائيل هم الأصل في هذه الملة . وغيرهم دخيل فيها فلذلك قد يقال لكل يهودي اسرائيلي » .

هذه حقائق يعرفها الصهيونيون أنفسهم . وقد عاش بعضهم في فلسطين ، وبعضهم في بلاد العرب ، وبعضهم في مصر ، وبعضهم في العراق وفي الشام ، وفي بلاد الأرمن ، وفي خراسان وغيرها وغيرها . فاذا صحت دعوتهم في الأحقية بفلسطين ، صحت دعوتهم بأي بلد آخر من البلاد التي استوطنوها من قبل ، وفيها مصر !

لقد دافع عنهم فرعون من فراعنة مصر مرة ، وحارب (بختنصر) من أجلهم ، وهزم ذلك الفرعون بسببهم ...

كما أن فرعون آخر طردهم قبل ذلك من مصر ، فما هو السبب ؟

لقد رأى ذلك الفرعون أنهم خطر على مصر كما هم خطر على كل شعب يعيشون بينه ، وخطر على كل دولة يسكنونها ، فطردهم من مصر ليأمن شرهم ...

ونوضح ذلك فنقول : وفد بنو اسرائيل على مصر أيام حكم الهكسوس طلباً للرزق ، كما كانت عادتهم من قبل ذلك مراراً عديدة ، كما حدثت التوراة ، في سفر التكوين . . وقد ساعد حكم الهكسوس لمصر على دخول أسرة يعقوب العبرانية اليها ، كما ساعد قبائل أخرى من غير العبرانيين على دخول مصر ، وقد ظلوا فيها مدة غير قصيرة ، وعلى ما تذكر التوراة أنها كانت أربعمائة وثلاثين سنة . ولكن هؤلاء الطامعين الطامحين كانوا عبيداً للمصريين .

جاء في التوراة ، سفر الخروج ، الاصحاح الأول ، عن ملك مصر الذي قال لشعبه على بني اسرائيل : « هلم نحتال لهم لئلا يثمر فيكون اذا حدثت حرب انهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الارض . فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم

فبنوا لفرعون مدينتي مخازن ورعمسيس . . . واستعبد المصريون بني اسرائيل بعنف ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل . كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً » . . .

ومما يقرر أنهم كانوا عبيداً وخدماً للمصريين ، وما جاء في الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، إذ قالوا لنبيهم موسى يعاتبونه عند ما خرجوا من مصر ولم يجدوا فوقاً كما وعدهم : « . . . لأنه خيرٌ لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية » ! . . . وغير هذا الكلام في ذلك السفر وغيره كثير . . .

وكان الفرعون الذي طردهم من مصر ، وامله منفتاح ، صادقاً في نظرته اليهم ، فقد كان اليهود وهم بنو اسرائيل يمالئون أعداء مصر ويأتون معهم ضد المصريين ، فأن الذين لا وطن لهم ويريدون أن يستقروا في أي بلد بأي ثمن !

وكان منفتاح في حروب دائمة مع الليبيين والأسيويين ، تخشى على ملكه من بني اسرائيل فطردهم . . . ولكنهم لم يكونوا اذا وطن إيعرفونه ، ولا بلد محدود نشأوا فيه ، فيمموا وجهة صيناء مخترقين الصحراء الشرقية ، وكان ما هو معروف من ضلالهم في التيه أربعين سنة ثم هجومهم على الكنعانيين في فلسطين . . كما جاء في سفر الخروج ، الاصحاح الثالث : « فنقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً » .

وفي هذا السفر ما يصوّر أخلاق القوم تمام التصوير ! فتصوروا كيف طلبوا المصريين . جاء في نفس الاصحاح : « . . . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين » .

وقد كرر هذا الكلام في الاصحاح الحادي عشر من نفس السفر ، وفي الاصحاح الثاني عشر أيضاً ، حتى تمت المعجزة ، وسرقوا أمتعة المصريين . . .

وكان حينئذٍ ما تقدم من نزولهم أرض كنعان ، وحروبهم ، وتشتيتهم مرة بعد أخرى حتى أبادهم (طيطوس) ابادة تكاد تكون تامة . . .

فكيف إذن بقي هؤلاء اليهود ؟

قلنا انه لا شك في أن اليهود الذين أبيدوا هم أكثرية بني اسرائيل الذين تهوّدوا بالدعوة اليهودية ؛ أما من بقي منهم فهو بنو إسرائيلي هاربوا شرد من تلك المذابح ، أو من الأجناس الأخرى كالفرس والروم الذين اعتنقوا اليهودية وتقدم ذكرهم . . .

* * *

وقد انقسم اليهود مذاهب شتى . . .

قال أبو الفدا في كتابه أيضاً :

« . . . وافترقت اليهود فرقاً كثيرة ، (فالربانية) منهم كالمعتزلة فينا ، و (القراؤون) كالمجبرة والمشبهة فينا ، ومن فرق اليهود (العانانية) ، نسبوا إلى رجل منهم يقال له عانان ابن داود . . . . . وأما (السمرة) فمنهم فرقة يقال لها السمانية ، وتسمى السمانية أيضاً القانية ، ومنهم فرقة يقال لها (كوهانية) . . . وليهود أعياد وصيام ، فمنها (الفسح) ، وهو اليوم الخامس عشر من نيسان اليهود . وهو عيد كبير . . . الخ . . . الخ . . . »

هذا ما ذكره أبو الفدا وغيره من قدماء المؤرخين . . . كما ذكر شيء قليل بهذا عن السامريين في التوراة ، سفر الملوك الأول الاصحاح السادس عشر . . .

والعجيب في أمر واضع الكتاب الانجليزي الذي ذكرناه في رأس المقالة ، اعتباره (السمرة) ، أو السامريين ، غير يهود ، بل اعتبارهم كالمنبوذين في فلسطين . . .

وقد قدّر عددهم بما بين مائتين ومائتين وخمسين نسمة فقط ، ولكنه يعترف بأنهم من أسباط يهوذا ، وقد طردوا من أورشليم أيام الحكم المحسمونيا ، فاستوطنوا جبل السامرة ، وهم لا يؤمنون إلا بأسفار موسى الخمسة ، التي يحفظونها في ترجمة خاصة في لغتهم العبرانية باللهجة القديمة ، ويسمونها التوراة ، ويعيشون في نابلس ، وهم فقراء جداً . . .

هؤلاء هم السامريون . . . السلالة القديمة الباقية من اليهود في فلسطين بل السلالة القديمة التي لا يرقى الشك إلى نسبتها لأصلاب الاسرائيليين في العالم كله . . .

ولعله من الطريف حقاً أن نعلم إن صلة الصهيونيين باليهودية الخالصة مقطوعة بل معدومة ! فقد تقدم كيف ينظرون إلى السامريين نظرتهم الى أهل ملة أخرى ، بل كيف

يضعونهم في ذيل أصحاب الملل الأخرى ، في صف واحد مع الوثنيين !

ولعلّ هذا حق من وجهة النظر الصهيونية ، فهم ليسوا يهوداً خلّصاً — اسرائيليين — ولا هم يريدون احياء عرش آبائهم وأجدادهم في فلسطين كما يدعي البعض ، ولكن زعيمهم سياسية واستعمارية محض ...

فمن هم هؤلاء السامريون الذين يبرأ منهم الصهيونيون الآن ؟ .

أما أن السامريين يهود فهذا ما لا شك فيه . فهم يحتفظون بعادات اليهود القديمة ، وأعيادهم القومية ، ومن ذلك عيد الفصح على التقليد الذي ذكرته التوراة ، وهو يوافق اليوم الذي نجوا فيه من مذلة المصريين وخرجوا من مصر . وهذه الكلمة ، كما ترجمها القدماء . فسح ، أي فصح كما نعرفها اليوم . مأخوذة من العبرية — بيصح — وهي تعني المرور أو العبور ، وهي كذلك تعني في الانجليزية المرور أو العبور Passover وهم يقصدون بها الخروج من مصر . . . وهم في هذا العيد يقدمون الضحايا والقرابين ...

جاء في سفر الخروج وصف دقيق لهذا التاريخ ، وللقرابين التي تقدم ، فهو أول شهور السنة ، وفي العاشر منه تذبح القرابين . ويأكلون لحمها مشويًّا على النار مع فطير ، ولا يبقوا منها شيئاً للصباح ، والحَمَل والأجير لا يأكلان منه ، ولا يخرج لحم من البيوت الى الخارج ، ولا يكسر عظمة ، ولا يذوقه أغلف ، وأن تكون علامات القربان وأوصافه كذا وكيت ، الى آخر هذه التعاليم ...التي لا يعمل بها أحد من الصهيونيين الذين يريدون إحياء ديانتهم في فلسطين !

وإليك ما جاء في مجلة (البريد المصور) الانجليزية عن هؤلاء السامريين ، في أحد أعداد ابريل من العام الماضي ، بعنوان : (السامريون يحفظون عيد الفصح ، ويحتفلون به) قال الكاتب : « في اليوم الرابع عشر ، بعد ظهور القمر الجديد في الشهر الأول ، وهو يوافق مارس أو ابريل بالتقويم الأوربي ، تقوم البقية الباقية من السامريين بتأدية أقدم شعار ديني عرفه الانسان . وهم يحتفلون بهذا الشعار فوق قمة جبل جريزيم ، الذي يبلغ ارتفاعه اكثر من ألفين وثمانمائة قدم من سطح البحر . وهؤلاء السامريون هم كل من بقي من الفرق ، أو القبائل العشر ، من بني اسرائيل . وقد لقوا فاسطين قروناً طويلة مع إخوتهم اليهود ،

وهم ينحدرون من فرقة يهوذا ، ولم يبقَ منهم اليوم إلاَّ أقل من مائتي شخص ، يعيشون جميعاً في مدينة نابلس ، في ظل جبلهم القديم . وهم لا يشعرون بتعدهم الزائل إلاَّ مرة واحدة كل عام ، عند ما يصعدون على قمة الجبل المذكور ليحتفلوا بعيد الفصح ، في نفس المكان الذي احتفل به آباؤهم منذ أجيال لا يحصرها التاريخ ... ... وليس لهم معبد اليوم ، ولكنهم يحتفلون بعيدهم على قلة الجبل الجرداء المعهدة . وقبل الاحتفال يخرجون جميعاً من منازلهم ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وينصبون خيامهم على قمة الجبل ، ويقومون بطقوسهم القديمة كما وصفها الكتاب المقدس (سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر من اعداده الاول الى الرابع والعشرين) .

وهم يحفرون خندقاً ليستعملوه مذبحاً بأبعاد ومسافات خاصة . وفي الرابع عشر من الشهر ، عند ما تنحدر الشمس الى المغيب ، يشعلون ناراً في الخندق ، ويجهزون ماء يغلي . . .

ثم يقف كاهنهم الأكبر على إفريز ويقف الآخرون خلفه متراصين في صفوف بترتيب أعمارهم ، ويرتل التراتيم التي يقرؤها من سفر الخروج مشيرة الى احتفال أجدادهم الأول بتحليصهم من نير العبودية في مصر ، وخروجهم منها . أما الضحايا التي تقدم ، فيجهزونها قبل أيام من تاريخ العيد ، وهي حملان كما وصفها الانجيل . وهي الآن سبع ، ترمز كل ضحية منها الى عشيرة من العشائر السبع الباقية في هؤلاء السامريين . وقبل غروب الشمس تماماً ، يحيط الجمع الحافل حول المذبح ، حتى إذا بلغ الكاهن ترنيمته : (وتكون عندكم تحت الحفظ الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، ثم يذبحه كل جمهور جماعة اسرائيل في العشية) يأتي بالحملان شبان يرتدون ملابس بيضاً ونعالاً ، يحمل كل ثلاثة منهم حملاً ، فيكشف عليها الكاهن ليتأكد من خلوها من العلامات ، ثم يذبحها ، ثم يأخذون دماءها ويمسحون بها خيامهم راسمين شارة ملاك الموت . ويصفى الدم من الذبائح ، ثم تطبخ ويستريح البعض ، بينما يذهب المتفرجون الى خيام أخرى ومعهم بعض السامريين الذين يبيعون لهم الفرق . . . وعند انتصاف الليل يؤخذ اللحم ، ويكونون متراصين كما وصفت التوراة ، ويقشر اللحم بالأيدي ، ولا يتركون عليه شعيرة صغيرة . أما الفضلات ، والعظام ، فتحرق

جميعاً إحراقاً دينيا ، كما يأمر الكتاب المقدس . وبعد ذلك يحتفلون في الصباح بعيد الفطير غير المخمر ، ويستمر ذلك سبعة أيام . ويقضون غالباً أسبوعين فوق قمة الجبل ، وقد يولد لهم أطفال وهم يحتفلون بأعيادهم تلك . وهكذا يحتفل السامريون بطقوسهم القديمة ، احتفالاً بخروج أبناء اسرائيل من مصر منذ اثنين وثلاثين قرناً . . . » .

* * *

هذا بعض ما ذكرته المجلة الانجليزية ، وقد نشرت صوراً لهم وهم يصلّون ، فترى في سجودهم وركوعهم ودعائهم وابتهالهم الى الله شبهاً تاماً بصلوات المسلمين وركوعهم وسجودهم ودعائهم وابتهالهم .

ولقد آثرت أن أترجم هذا الكلام الطويل . لأسأل هؤلاء الصهيونيين الذين يريدون استعمار فلسطين اليوم ، هل هم من أسباط أولئك السامريين ، أو الاسرائيليين ؟ أم هم أجناس أخرى لا يعلم أصولها غير الله ؟ وهل يحتفلون بما ورثوا عن (أجدادهم) أم أن دعاواهم مجرد تمحك وافتراء ليغتصبوا بلداً لا يمتون إليه بصلة أو نسب ؟

* * *

ومن الجهل أن يظن بعض المصريين ، والشرقيين عامة ، أن الصهيونيين يتحدرون من أصلاب من عاشوا في فلسطين من اليهود القدامى ، أو أنها بلادهم الأصلية ، التي خلقوا فيها وعاشوا بها ، وهذا خطأ . . . فلم يبق من اليهود الأصلاء غير بعض الأشتات في آسيا الغربية ، وغير هؤلاء السامريين الذين قدمنا فصلاً عنهم ، والذين يندثرون الآن ... وهم لم يأتوا من فلسطين نفسها ...

ولسنا نعلم عن غيرهم من اليهود من يحتفظ بتلك العادات والتقاليد والأعياد . كاحتفاظ السامريين والأشتات المتفرقة في آسيا ...

وادعاء اليهود الآخرين بحقهم في فلسطين لا يقوم على أساس من حق أو منطق . . . فقد ذكرت التوراة في غير موضع أن العرب الفلسطينيين كانوا يخشون سطوة الاسرائيليين

الدخلاء عليهم فيختلطون منهم متحدين مع غيرهم من الشعوب الأخرى... وكان الفلسطينيون يحاربون بني اسرائيل ويهزمونهم دوماً مرة. ذكرت التوراة كل هذا في مواضع كثيرة وبخاصة في أسفار الملوك وأخبار الأيام وصموئيل ...

واليهود المشردون في أنحاء العالم اليوم أو الصهيونيون، هم غير بني اسرائيل الذين عاشوا في فلسطين قديماً، وليسوا غير قوم رحل خلقوا بلا وطن، وظلوا بلا وطن، حتى عجز بهم الشيطان أن يدعوا حقهم في فلسطين، وان يخرجوا العرب منها. وغداً يتجهون الى مصر، والشام كله، وبلاد العرب، والعراق لأن بعض الاسرائيليين البائدين عاشوا في تلك البلاد ...

* * *

وإذا صحت هذه الدعوى، فما أسهل أن يجمع المسلمون أمرهم في العالم كله — عرباً وغير عرب — ثم يتجهوا الى جزر البحر الأبيض، وبخاصة مالطة وصقلية، ثم الى اسبانيا، ويطلبوا احتلالها جميعاً، لأن المسلمين فتحوها زماناً طويلاً ..!

وهو حق يشبه حق الترك في أوربا، وحق الانجليز في مصر وايران والهند، أو حق الرومان في مصر وفي انجلترا وفي فرنسا، أو حق مصر في أمبراطوريتها القديمة والحديثة، أو حق اسبانيا في أميركا — مثلاً — لانهم حكموا تلك البلاد ... وغيرهم وغيرهم.

* * *

وقد تبين فيما تقدم انه لا صلة للصهيونيين بفلسطين العربية، فأحرى بهم إذن أن يبحثوا عن مكان ناء غير معمور، كنصف استراليا المهجور، مثلاً، ويستوطنوه، فحقهم في أي بلد، كحقهم في فلسطين تماماً.

مصطفى الهرى غنام

مكتبة المقتطف

نفحات من سيرة السيدة زينب

ذلكم هو عنوان كتاب أصدره فضيلة الأستاذ احمد الشرباصي — وهو مدرس بالأزهر الشريف — ومن أدباء الشباب المبرزين .

ليس هذا الكتاب أول ما يصدر من مؤلفات الأستاذ الشرباصي فقد سبق أن أصدر عدة كتب أيام كان يطلب العلم على كرسي التلمذة فأصدر « حركة الكشف » و « محاولة » و « بين صديقين » وغيرها . واليوم يتحف العالم الاسلامي بكتابه النفيس هذا .

لم يقتصر الكتاب — على صغر حجمه [1] — على ذكر سيرة السيدة زينب وإنما حوى أموراً ذات شأن أوحت بها سيرة هذه السيدة العظيمة الشأن .

بدأ كتابه بذكر الاحتفال بالمولد الزينبي ذاكراً فوائده ومزايا أمثال هذه المواسم الدينية التي « هي ذكرى تنبه الغافلين من المسلمين وهي فرصة لاستعراض صفحات من التاريخ الاسلامي الحافل بالعبر والعظات . . . » إلى غير ذلك مما فيه الخير للفرد والمجموع .

ولكن مما يؤسف له أن الأمر لم يكن خالياً مما يشوّه روعة هذه المواسم ويحط من شأنها ويقلل من قدسيتها ، هو ما يجري فيها من الجرائم والتحايل والدجل والشعوذة ، يقوم بها رجال ضعف الإيمان في قلوبهم واتخذوا من هذه المواسم تجارة رابحة ظهر ورمماً خصباً لشهواتهم . ويتخذون من سذاجة عقول البسطاء وصيلة للوصول إلى مآربهم وغاياتهم الدنيئة

---

١ — عدد صفحاته ١٤٨

وأولئك الذين أقبلوا من كل حدب وصوب للزيارة لم يؤدوها على وجهها بل صارت لديهم ضرباً من الرياسة ومظاهر الشرك : « فتراهم يتمسحون بالأضرحة ويطوفون حولها كأنها الكعبة الحرام ويلثمون عتباتها كأنها عتبات عرش ربك ويلصقون صدورهم بأبوابها وحديدها وتحاصها كأنها الملجأ الواقي من السعير ، ويلصقون خدودهم بعتباتها ويعفرون وجوههم بترابها ويعلقون الخير والشر والثواب والعقاب برضى ساكني هذه القبور وإرادتهم » .

هذا بعض ما جاء في الكتاب من وصف حالة الزائرين والزائرات لكل ضريح أو مقام في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية . وحقيق بكل مسلم موحّد أن يحارب هذه المظاهر الوثنية ، فقد بلغ هؤلاء الناس حدّاً من ضعف الإيمان بالله أنّ اتخذوا من ساكني القبور أرباباً من دون الله يخشونهم ويرجون خيرهم من دون الله ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالدعاء وهم يتلون كتاب الله أو يسمعونه يتلى عليهم بواضح العبارة وفصيحه « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وفي آية أخرى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ... » وهم يستعينون بالأموات ويقول ربهم في كتابه العزيز « إياك نعبد وإياك نستعين » .

واستطرد إلى أن الانسان يجب أن يكسب رضى الله بجده وعمله لا بحسبه ونفيره وبالدعاء والتوسل الى المقربين الى الله تعالى فليس يغنيه كل ذلك شيئاً .

* * *

وانتقل بعد ذلك إلى سيرة السيدة زينب ، فهي بنت أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه وأمها فاطمة الزهراء بضعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وشقيقها الحسين عليه السلام ، ولدت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة بعد أخيها الحسين بسنتين وشهدت من حياة الرسول الكريم خمس سنوات ، فورثت أكمل الصفات وأجل المزايا من سيد الرسل ووالدها البطل المغوار .

ولما كبرت سنها وتما عودها تزوجت ابن عمها عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وهو الذي ولد بأرض الحبشة حين الهجرة الأولى . وتوفي رسول الله وعمرها عشر سنوات .

وكانت السيدة زينب مثالاً للزوجة الفاضلة المخلصة فكان بيتها أهنأ بيت وأسعده وصار لها من الأولاد : علي ومحمد وعباس وعون وأم كلثوم وأم عبد الله وماتت بعضهم في أول حياته وعمر آخرون .

وكانت رضي الله عنها جميلة الخلقة صبيحة الوجه كريمة اليد والنفس عالية فاضلة فصيحة بليغة شجاعة جريئة مقدامة .

وحينما بدأ شقيقها الحسين رضي الله عنه جهاده كانت معه حوراً له اشد أزره وتقوم بكل ما يحتاجون إليه دائبة على العمل صابرة .

وعندما وقعت الواقعة وصعدت روح الحسين الى الملأ الأعلى ظلت السيدة زينب رابطة الجأش وإن كان الحزن قد قطع نياط قلبها « وجاهدت في سبيل الله جهاد الصادقين وادخرت أخاها عند مليك مقتدر » .

وحملها عمر بن سعد مع أخواتها وأبناء الحسين الى الكوفة فروا بالحسين وأصحابه وهم قتلى فعلا العويل والصراخ منهم .

وجرت محاورة ومداورة بينها وبين عبيد الله بن زياد ، وكانت فيها سريعة البديهة قوية الحجة والمنطق تقرعه بلواذع العبارات .

ولم تنخدع بدموع التماسيح التي سالت عن أعين أهل الكوفة فوقفت بينهم مكنة تقرعهم وتظهر كوامن نفوسهم الخبيثة ثم تعقب على ذلك سابَّة لاعنة ، فاستدرَّت بلاغتها الدموع فضجَّ الناس بالبكاء وعضوا على بنان الندم .

ثم يأمر الطاغية ابن زياد بتجهيز الأسرى وفيهم السيدة زينب ، وترحيلهم الى الشام ، وهناك لقين ترحاباً من نساء يزيد .

ووقفت السيدة الفاضلة إزاء يزيد تذكره بآثامه وأعماله الشنيعة بتقريع وتأديب في خطاب طويل بليغ فكان ذلك سبباً في أن يأمر يزيد بإخراج الطاهرة زينب ومن معها الى المدينة . فخرج بهم الرسول معززاً إياهم مكرماً مارفاً لهم حرمتهم وكرامتهم .

وأخذت تؤلب الناس في المدينة على الأخذ بثأر الحسين ، فأحصَّ اليزيديون بخطرها عليهم ، فكتب بذلك إلى يزيد فأجاب بأن يفرق بينها وبين المدينة على أن تختار هي البلد الذي

تأوي اليه . فاختارت مصر وكان استقبالها في مصر عظيماً

وأقامت في مصر عابدة زاهدة حتى وافاها الأجل المحتوم في الرابع عشر من مساء السبت ليلة الأحد من شهر رجب سنة اثنتين وستين للهجرة . وأقام لها فقهاء مصر ووجهاؤها موسماً حافلاً بعد عام من وفاتها هو المولد الزينبي الذي لا يزال يقام عندنا من أول شهر رجب إلى منتصفه في كل عام .

ونطرق إلى ذكر الآراء والأقوال المختلفة في موضع ضريح السيدة زينب . وسرد ما نال هذا الضريح من اهتمام واحتفاء وتجديد بأيدي الملوك والأمراء الى عهد الملك فاروق اليوم .

وختم البحث بالدعوة إلى الوحدة والتآلف واتباع سنن الرسول وأن نتخذ من سير هؤلاء الصالحين والصالحات نبراساً نهتدي به في ظلمات الحياة الحالكة ودياجير الهوى والضلال وأن نتخلق بأخلاقهم ونهتدي بهديهم ونأتم بهم ونتخذهم قدوة لنا وإماماً في أعمالنا . لا أن نتمسح بقبورهم ونقبل الأرض عند ضريحهم ونطيل اللحى ونقبع في الزوايا والتكايا كسالى لا خير فينا ، فليس هذا من الدين في شيء .

هذا وإني لأدعو كل إنسان إلى مطالعة هذه السيرة الطيبة فهي سراج للقلوب ونور للعقول وأخص السيدات بالذكر ليتخذن منها قدوة صالحة فهكذا تكون النساء .

* * *

أما أسلوب الكتاب فرصين متين قوي الديباجة سليم العبارة جزل الألفاظ ، وكأني به أحد شيوخ الأدب الأقدمين يرسل القول ارسالاً مستقيم الرأي سليم الفكر رفيع الأسلوب .

وإني لآمل من الأستاذ المؤلف احمد الشرباصي وغيره من الباحثين أن يكثروا من نشر مثل هذه السير وإذاعتها في الناس فهي مجهولة لديهم غريبة عنهم ، ففيها الفائدة الجلى والنفع الأعم

بغداد محمد فائق ترفيق

مدرس تطبيقات دار المعلمين ببغداد

موجز تاريخ الحروب والقرون

جزء واحد في ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير — ثمن كل جزء جنيه مصري واحد

أول ما يروع المطلع على تلك الموسوعة التاريخية التي قام بوضعها الأستاذ حنا أبي راشد الرحالة الشرقي المعروف ، ذلك الحشد الكبير لمواكب التاريخ منذ بدء التاريخ في إيجاز غير مخل ، وفي عرض شائق غير ممل .

وقد جمع لموسوعته الفخمة من حوادث التاريخ ، ومن أحداث الزمن ، ومن آثار الأمم والشعوب المختلفة ، ومن أعمال الرجال ، ومن قصص البطولة ما يشهد له بسعة الاطلاع ووفور المادة التاريخية والمعلومات الكثيرة التي يعيها في صدره ويختزنها في عقله ليسطرها بعد ذلك ويخرجها للقارىء صوراً تاريخية رائع المشاهد .

ولم يشأ أن يعرض لهذه الحوادث والأحداث وتلك الآثار والأعمال وذكر البطولة والأمجاد عرضاً عادياً . ولكنه قسّم الزمن في موسوعته إلى قرون . فتكلم في كل قرن أحداثه وحوادثه في كل مكان وكل بيئة وشعب . مما يجعل تاريخ كل قرن ميسّراً أمام القارىء يعرف منه ما حدث هنا أو هناك في آن واحد . وهي ميزة لا ينكر أثرها في تسهيل إدراك البغية للباحث ، وفي تبسيط التاريخ للمطالع .

وقد انطوى الجزء الأول من تلك الموسوعة على أبرز الحوادث منذ بدء التاريخ المعروف حتى القرن الثالث عشر الميلادي . أما الجزء الثاني فقد جمع بين دفتيه الحوادث منذ ختام القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر الميلادي ويليه الجزء الثالث — الذي لم يصدر بعد — ابتداء من القرن التاسع عشر .

وقد حرص المؤلف على أن يختم باب كل قرن بملخص يذكر فيه أهمّ الحوادث التي وقعت خلال ذلك القرن بعد أن يكون قد عرض لهذه الحوادث خلال الكلام عنها . ثم زيّن صفحات الكتاب بكثير من الرسوم التي ترتبط ببعض ذلك السرد التاريخي من رسوم لأعلام وأبطال أو مشاهد وآثار مما يزيد في فائدة الكتاب .

ولكن هناك هنات وقعت يخلال الطبع نرجو أن يوفق المؤلف إلى تلافيها في الأجزاء الباقية وعند إعادة الطبع ليكون لهذه الموسوعة قيمتها من كل وجهة ولا تستتبع الخطط الحمر في خطأ في الأرقام التي تفسد من القيمة التاريخية للكتاب .

حرب العالمية الثانية شعراً ونثراً

للاستاذ اسكندر الخوري البيتجالي ؛ ٢٠٠ صفحات (دار احياء الكتب العربية القاهرة)

تناول الشاعر الفلسطيني المعروف الاستاذ اسكندر الخوري حوادث الحرب العالمية الثانية في ملحمة شعرية بلغت أبياتها (٢٩٣) بيتاً شرع في نظمها منذ نطقت الرصاصة الأولى ... وفرغ منها حين خمدت نأمتها وطوح زبانيتها بأسلحتهم القتاكة (ونوا إلى حين...!) وفي هذه التحفة الشعرية تقيد الشاعر البيتجالي ببحر واحد وقافية واحدة ، وهو جهد عظيم بذله في نظم تلك الملحمة ، مدللاً بذلك على اتساع لغة (الضاد) لأي ضرب من ضروب الشعر ، أما مطلع الملحمة فهو :

« نامرا طوال ليالهم خلّيّنا واستأمنوا الدهر الاشرّ يطمئنا »

وقد أوفى الشاعر النابه موضوعته النفيس الماتع بحواشٍ وشروح أضفاها على قريحته فجاءت مع الشعر العذب سجلاً للحقيقة وكتاباً يجمع بين الأدب والقومية والتاريخ والسياسة.

وكان من إعجاب الشاعر النابغ الاستاذ علي محمود طه بتلك النفحة المقدسية المجنحة ان قدّم لها بتمهيد رائع موفق إستهله بقوله :

« ليس بدعاً ان تخرج لنا فلسطين أرض الدم المسكوب ، والحق المغصوب ، والصراع المشبوب ، شاعراً حكيماً مبيناً كالأستاذ اسكندر الخوري ، يؤرخ لنا هذه الحرب العالمية الثانية ويقف من أحداثها وفواجعها موقف الناطق الملقن والقاضي المحقق » ويشيد الأستاذ علي محمود طه بتوفيق شاعرنا الخوري كثيراً « في تناوبع الأسماء الاعجمية لموسيقيته » ويلاحظ القارئ ذلك من قول شاعر الملحمة :

« والروس ما عتموا أن قام قائمهم وواصلوا زحفهم (برلين) يغشونا
غزوا (بدابست) في جيش زعمه جوكوف واستخلصوا (فينّا) مُجلينا »

ومن قوله مخاطباً حاضرة المانيا :

« لو كان (هتلر) حيّاً ما مددت يدا ولا حملت على أبناء (موشكينا) »

وكان جميلاً من الأستاذ الخوري ان يتلفت وهو صادر في تصوير شاعره على القرطاس إلى الشرق العربي وقضاياه الكبرى فينادي بحقه ويهتف بالخير له ويتغنى بمثله العليا ويشيد ببطولة أبنائه وينعي على الحضارة الآلية هذه المذابح الحيوانية التي صبغت أديم الأرض بلونها القاني وأغرقت الدنيا في لججها الطاغية وقذفت العالم في عواصف سعيرها المتقد .

وفي تلك الملحمة عرضٌ رائع للاحداث السياسية التي ألمّت بالمجموعة العربية ابان هذه الحرب الضروس فمن (جامعة الدول العربية) الى قضايا مصر وسورية ولبنان والعراق

وفلسطين ولم يفته الحديث عن مؤتمر سان فرنسيسكو قائلاً :

« يا طير إسان فرنسيسكو على مهلٍ إحمل لسان فرنسيسكو أمانينا
هنيء دُعاةَ فرنسيسكو وقلْ لهمُ « إنا نحييكمُ ياسُلمى خيابتنا » !
قلْ للوفود مقالَ الصدق هل ذكروا بنود (ولسنَ) حل هم غيرُ ناسينا :
بتحريرها لا سلاماً ينشدون ولا صلحاً به الأمنَ يوماً يستعيدونا

والواقع ان في ملحمة الشاعر المنتج كتابين ناطقين كما يقول الأستاذ طه : يظفر فيهما عشاق الأدب الرفيع بنصيب وافر ، ويرجع محبو التاريخ بقسط ملىء زاخر » ونلاحظ على الأستاذ الطوري تخلصه البارع عندما ينهي ملحمته بأبيات يرحب فيها بدنيا السلام ومن ذلك قوله :

أهلاً بدنيا سلام لاح بارقها وذوّ فارقها للخير يهدينا
دنيا سلام على الأخلاق قائمة (لا ، لا) على زوات المستبدينا

ولئن قدر للحرب العالمية الأولى أن ينظم وقائعها شعراً الكاتب العربي الجبار الشاعر الناثر المرحوم أسعد خليل داغر فان تاريخ الحرب العالمية الثانية حظي بشاعر غمس ريشته بحبر الخلود فجاءت ملحمته الطريفة من طراز عال يفوق كل وصف وتصوير !

بيت المقدس البروى الملثم

كرم على درب

تأليف ميخائيل نعيمة ، صفحاته ١٠٤ من القطع الوسط ، طبع بمطبعة المعارف بمصر

هذا اسم كتاب أصدرته دار المعارف في القاهرة مطبوعاً طبعاً أنيقاً وقد ضمّ بين دفتيه مجموعة كبيرة من الشذور والأمثال والحكم المهذبة للنفوس من نتاج عبقرية الأستاذ ميخائيل نعيمة وانبثاق نور بصيرته ومن ثمار ما وعاه صدره من معلومات وما دأناه من تجارب واختبارات وما بلاه من طبائع الناس وجمع هذه الأمثال تسمو الى الذروة في دقة تصويرها وبلاغة عبارتها . وقال في صدرها : « كرمي على درب فيه العنب وفيه الحصرم فلا تلمني يا طير السبيل إن أنت أكلت منه فضرست »

يقصد بذلك أن في بعض هذه الأمثال والإشارات ما يطابق صفات بعض الناس فلا تروق لهم قراءته لأنه يظهرهم على عيوبهم ويريهم عواقب هذه العيوب . وفيها حكم يقرأها غيرهم فيرتاحون إليها ويرون فيها ما يشجعهم على مواصلة الأخذ بأسباب الفضيلة والشرف والحب والايثار . وكتاب كهذا جدير بأن تزدان به مكتبة كل فرد فانه كتاب الحياة في صميمها . فنثني على فضل مؤلفه وعلى فضل دار المعارف في طبعه ونشره .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد التاسع بعد المئة

٢٤١ التعاليم اللاهوتية في أصل الحيوان والانسان

٢٤٥ تحقيق في ولادة النبي : عبد المقصود حشاد القلكي

٢٤٧ تجربة جديدة في ألياف الراهي : عوض جندي

٢٤٩ معجزة في عالم الجراحة

٢٥٣ الكيمياء عند العرب وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي : شريف النشاشيبي

٢٥٧ هوبنهور والطبيعة البشرية : جريس القسوس

٢٦٩ الطاعون وعلاجه : الدكتور عبده رزق

٢٧٣ المضويات آخر كلمة فيها : نقولا الحداد

٢٨١ المجمل في اللغة لابن فارس — مخطوط : طاهر التنعاني الحوي

٢٨٦ بنو اسرائيل واليهود وعلاقتهم بفلسطين العربية : حسين المهدي فتام

٢٩٧ مكتبة المقتطف ٥ فصحات من سيرة السيدة زينب : محمد فتح توفيق . موجز تاريخ الحروب والقرون : الحرب العالمية الثانية شعراً ونثراً : البدوي الملثم . كرم على درب

لحق

١ — ٦٠ الحق والقوة — دراسة اجتماعية بقلم أرمان لطاف : ترجمة حليم دمعه

لواحق المقتطف الشهرية

الحق والقوة

دراسة اجتماعية

بقلم

الدكتور فرنسيس بكون

ترجمة : سليم سعده

« اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا »
« أن يجعلوا ما هو عادل قويًّا فانهم جعلوا ما هو قوي عادلاً »

« باسكال »

طبع بمطبعة المقتطف بمصر
١٩٤٦

الفصل الاول

مقدمة

لم يتحدثوا في عصر من العصور عن الحق بأكثر مما تحدثوا عنه في وقتنا . فمن ذا الذي لا يزعم ان الحق في جانبه ؟ وليس الأمر قاصراً على المحامين أو الخطباء فحسب ، ولكنه يتعداهم الى المنازعات الاجتماعية كما يتجاوزهم الى الخلافات الدولية . فجميع الخصوم يصيحون بأنهم يرفعون لواء الحق ، ويستضيئون بنور الحقيقة . فنهم من ينادون بأن قضيتهم عادلة وأتباع النظريات المعارضة يتذرعون بالحق لتعزيز مطالبهم ويعتمدون في ذلك على قوة السلاح أو غيرها من وسائل الارهاب .

ولكن كم عدد الذين حللوا الفكرة التي يتمسكون بها من بين هؤلاء جميعاً ؟ ان الالفاظ المجردة أشبه بالأعلام الفضفاضة يعبث بها الهواء وتديرها الريح المتقلبة تباعاً حيث تسود الأهواء والغايات .

***

لقد عبر الفلاسفة عن الحق بشتى المعاني وفسروه بمختلف العبارات ، فشيدوه تارةً على القوة وتارةً على المنفعة والمصلحة وتارةً أخرى على المساواة والحرية .

أما التفسير الأخير فهو الذي نادى به « كانت » بقوله : « كل عمل يكون عادلاً ما دام يجمع بين حرية الفرد وحرية الجماعات في ظل شريعة عامة » . وقال سبنسر مثل ذلك : « اننا نعمل عملاً عادلاً ما دامت حريتنا العملية لا تعتدي على حرية أي انسان آخر ولا تتعارض معها » . وهذا المبدأ في مساواة الحرية يرتكز بدوره على : « كرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ... إن كل رجل يحمل غايته في ذاته . فلا يجب أن يستغل كآلة أو يتخذ وسيلة . فكل فرد — اذا وقف على نسبية مداركه الشخصية وكيان أمثاله — يستطيع أن يضع حداً لأنانيته وتماديها الى ما لا نهاية له . « إن الشعور بأن كل كائن يحمل في نفسه هبةً لا يمكن التعبير عنه الا لذاته ولا علاقة له الا بشخصه ، ذلك الشعور هو مصدر الحق

وكيانه (هيرينغ) . اذا نقف برهة من حيال كائن مثلنا كما نقف حيال أية ظرفة يتعذر على عقلنا ادراكها كما يتعذر علينا قياسها بتصيلنا على أننا نشعر في أعماق ضمائرنا بأن هذا الكائن مقدس لأنه ينعم بضمير مثلنا ... وهكذا فان مبدأ الكرامة الأخلاقية يقوم على القناعة والتعقل وصيانة ما للغير .

ان العيب الظاهر على هذا التفسير هو انه يرتكز على نظرية قياسية لم يرد ما يؤيد صحتها ، وقاعدة جدلية لم يدرك كنهها العالم الذي لا يرتكن الا على الملاحظة والاختبار . وكذلك المشرع ورجل الدولة لأنهما لا يهتمان الا بحكم الرجال . إن تحديد مدى الأنانية في ذاتها لا تسهل ملاحظته الا في المجتمعات ، والعدالة الانسانية التي تدوّن في الشرائع ليست رمزاً لمذهب مثالي نبيل يستطيع الأفراد أن يعيشوا في كنفه فيخلعون على أمثالهم ما تملكه أيمانهم بمحض ارادتهم . ففي أي مكان تدّر لنا أن نكون لا نسمع الا كلمة الحق ولا تقع أنظارنا الا على الحق . وقد أعد وهيء على قياس عقلي واعتبر وسيلة كفيلة بضمان المساواة للجميع في استعمال حريتهم .

فمن ذا الذي يعبأ أو يهتم « بكرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ، ومن ذا الذي يفكر في احترامها ؟ لا أحد الا بعض القائلين بضرورة تهذيب الأخلاق وتقويمها ممن لا تعصف فكرتهم ولا تسمو الا داخل قلعتهم العاجية ، وتلك القلعة نائية عن معترك الحياة وميدان القتال . انهم يقولون لنا : « ان العدل فضيلة قبل كل شيء » ، ولا بد أن يكون متأصلاً في الارادة ليمكن تنفيذه بواسطة الشرائع . ان الواجب الاجتماعي يرجع بنا الى الواجب الشخصي » . ان الحق فكرة موجهة نحو المستقبل » . فالحق في نظر هؤلاء العلماء قائم على احترام المساواة في الحرية عند جميع الرجال وبذلك لا يكون الا فكرة كمالية خاضعة قبل كل شيء للاصلاح الداخلي بواسطة نخبة مختارة من الرجال لا يأنفون الاستمتاع بلذة التأملات الفلسفية .

***

ولكن الحق في وقتنا هذا ؟ ذلك الحق المنصوص عنه في قوانيننا ، وفي معاهداتنا ، ذلك الحق الذي يعيش له السواد الأعظم العامل ، ويعرض على المفكرين المتأملين عند

ما يجرفهم دولاب العلاقات الاجتماعية ، ذلك الحق ماذا عساه أن يكون ؟ يقول المشرعون والفلاسفة الذين يفاخرون بالمذهب الوجودي وينادون بأن مراعاة الحقائق الصارمة خير من الاستسلام الى لذة الاحلام وان كانت في بعض الأحيان حقيقة راسخة ، ان ذلك الحق ليس الا شريعة من النحاس مصهورة في بوتقة القوة . وانه ليس وليد تفكير عميق حر للارادة البشرية . أما الشرائع فهي نتيجة التطور التاريخي لأعمال السلف وبلوغها الغاية وانما تعبر عن مصلحة الجماعات المنظمة التي تؤلف منها الدولة وتتعدم حيالها مصلحة الأفراد . يقول هجل : ان الأعمال العادلة هي التي يمتزج فيها روح الفرد مع روح الدولة ، وتعزز القوة الوطنية فيتحطم كل ما يعترضها أو يقف في سبيلها . فاذا ما تناولتها حركة التطور حولتها الى قوة ظافرة وحق مؤكد . في النزاع الذي يقع بين الدول ، يتولى الوطن المختار تنفيذ الحق الذي تسم له ، ويتحكم بخصومه وعلى شريعته الانسانية السامية تحت لهام الروح الالهي الذي قاد خطواته في ذلك النزاع حتى ظفر وانتصر .

ان الحق لا يستند الى أفكار ولكنه يستند الى وقائع . كما انه لا يتجه نحو المستقبل ولكنه يعتمد على الماضي ليسيطر على الحاضر . فهو القوة الكامنة في العنصر السامي المسيطر ، واختيار هذا العنصر كان نتيجة اختبارات طبيعية دقيقة لاقصاء جميع العناصر الناقصة العاجزة عن القيام بمهمتها على الوجه الأكمل ، وهذا ما يحمله على تنظيم شؤونه للاحتفاظ بقوته وتنميتها . يقول ايهرنج : « ان معرفة الحق مسألة عملية بحتة . . . وان غاية الحق وغرضه هو السلم ، والوسيلة التي يتبعها الحق لضمان السلم هي القتال والحرب والقوة . وسيظل القتال ما بقيت الدنيا . وهكذا ليس القتال غريباً عن الحق ولكنه مقيد بأوثق الروابط وأحكمها بتنفيذ هذا الحق وتطبيقه . فكل حق في الحياة لم يُكتسب إلا عن طريق القتال ، لأن تفهم الحق ليس إدراكاً منطقياً ولكنه مجرد إدراك القوة . ويقول هجل : « تقول بأن السبب القويم العادل يظهر الحرب ؟ وأنا أقول بأن الحرب القويمة العادلة هي التي تظهر جميع الأشياء . ان انتصار شعب هو الدليل القاطع على حقه » .

* * *

ها هما ذا التعليلان وكيفية ادراكهما وجهاً لوجه . على انه اذا تبين لنا ان إحداهما بعيدة

المرمى عزيزة المنال لأنها سريعة الزوال ذاتية ، وإذا كانت الأخرى تثير فينا مكامن النفس بقدر ما تثير الفؤاد ، فهلاّ نستطيع — حيال ذلك — أن نجد في غيرها حلاً يلائم الشعور ويرضي العقل معاً ؟

ستكون دراستنا قاصرة على الحق الواقعي ، ذلك الحق الذي يجد رموزه في الشرائع المدونة أو في العادات الشفوية المتقولة مع ما تتطلبه من التعليل والتدليل .

ولسوف تقودنا دراستنا الى فحص العلاقات الخارجية والداخلية التي تصون المجتمعات الانسانية وتحافظ عليها سواء أكانت مع مثيلاتها أو مع أعضائها .

الفصل الثاني

الحق الآلي للعلاقات الخارجية

ليست مواضيع الحقوق من المواضيع المجردة البسيطة المسخرة لذاتيتها كالتي يقنع بها المشرعون عندما يرغبون في تحلية مؤلفاتهم في القانون الخاص وتنميق صفحاتها بعبارتي : « أولاً » و« ثانياً » . فتلك المواضيع تعبر اما عن أشخاص حساسين شهوانيين عاملين، واما عن أشخاص أخلاقيين لا خياليين . وهؤلاء الأشخاص يُظهرون — بفضل استمرار أغراضهم وأعمالهم المتواصلة — كياناً ، كثيراً ما يكون مزمناً ، يختلف تمام الاختلاف عن أشخاصهم ويدلون به على فرديتهم الذاتية كذلك الفيلسوف الذي كان يدلل بالسير على وجود الحركة . ان العالم الاجتماعي يتناولهم ببحثه وهم أحياء ولا يقنع بدراستهم كما تدرس النباتات المجففة بين صفحات الكتاب .

ولكن ، أليست الحياة مظهراً خاصاً من مظاهر النشاط ، أم هي تختلف عنه . ان الكائن الحي يعرف مدى نفسه ويقدّرها بوسائل عمله وعقله .

إن الظاهرة المميزة للحياة هي الجذب ، والامتصاص ، والتحويل . فكل كائن حي يمكنه أن يحوّل جوهره الخاص الى عدة جواهر مختلفة تمتزج به . فتلك الامتزاجات الطبيعية والكيميائية تصون الحياة وتنميها وهي بمثابة الشرط الأصلي للحياة . وما دام الجسم حيّاً فإنه يكبر وينمو بفضل الغازات والسوائل والأشياء اليابسة المحيطة به ، والتي يخضعها لطبيعته وشكله . وعند ما يدرك سن المراهقة فانه يتوالد ويتناسل وهكذا يمتد في الفضاء وفي الزمن . فالاحتفاظ بالحياة والتعمير هما إذن نتيجة التغلب على الطبيعة المقهورة . يقول نيتشه : إن النمو يُعد جزءاً من تصور الشيء الحي . فكل شيء حي يجب أن يريد نفوذاً وسلطة ، وهكذا فانه يبتلع القوات الغريبة » .

فقد يحدث — خلال بحثه عن العناصر اللازمة لكيانه — انه يلتقي بمنافسين . وان هؤلاء المنافسين يصبحون أعداء : كائنات أخرى من نفس الجنس أو من أجناس مختلفة .

فيحتذب كل واحد منهم الى نفسه المواد الضرورية له ويلقى التفاوة . وكثيراً ما تكون تلك التفاوة ضارة بمن حوله . فإذا كان عدد الجواهر الضرورية لا يعد ولا يحصى فإن الجيران يعيشون في وفاق تام مع بعضهم . أما اذا انتفى هذا الشرط فان النزاع يبدأ في الحال بين الخصوم ، خصوصاً من اشتهروا بصلابة الرأي والعناد ، سواء أكانت خصومتهم ناشئة بسبب الحصول على الأغذية البسيطة التي توجد بوفرة لسد حاجيات الجميع ، أو للتغلب على جار خطر وسحقه . ان الحياة ليست سوى عمل أناني . وميل الكائن في المحافظة على كيانه هو خير تفسير — بواسطة الأنانية — لما يسمى الكائن الحي .

لم يكن للرجل الأول عدوٌّ شرٌّ من الرجل مثله ، وهو أقرب جار اليه . ففي العصور الأولى كان الرجل مرتبطاً بشريكة حياته وأبنائه بعاطفة طبيعية تعززها المصلحة . فكان يحذر الغريب ويكرهه بقدر ما كان يحذر منافسيه من الحيوانات ان لم يكن أكثر . وعند ما تعددت العائلات وازدادت عدداً وانتشاراً ، وعند ما استوطنت هذه العائلات الأرض زرعوها بأنفسهم ، بدلاً من السعي الحثيث وراء الفريسة والقنص ، وعند ما ازداد احتكاك الأفراد ببعضهم بزيادة السكان ، بدأت المنازعات بينهم ثم كثرت واشتدت بسبب المصالح ونشبت الحروب وأصبحت سجالاً . واضطرت الجماعات الطبيعية الناشئة عن العائلة — سواء أكانت على هيئة عصابات أو قبائل — أن تتخذ لنفسها شكلاً حربيًّا أو تحافظ على وجوده ، وأن تضع نظاماً أوحت به الحاجة الى القتال الذي كانت ترقبه عن كثب وفي كل لحظة . وكانت تلك الجماعات مؤلفة داخل نطاق ضيق ، ومعادية لجميع من حولها بحيث لا يوجد بينها وبين جيرانها علاقة مطلقاً . والآثارات التي خلفتها لنا عهود المدنيات القديمة منذ نشأتها قد حملت الينا آثاراً واضحة لتلك المعاهد الأسفية . ولقد كانوا في روما يجهلون معنى الحدود الفاصلة — على ان وضع مثل تلك الحدود كان متعذراً ومستحيلاً ، فكانوا يفصلون بين حصتين في ميراث واحد بقطعة من الأرض يطلقون عليها اسم المنطقة المحرمة . اما في المدن فكانت المساكن متباعدة فلا يجوز أن تلتصق ببعضها . وأبواب المنازل الرومانية لا يمكن أن تفتح إلاَّ من الداخل كالأطم المحصنة .

ولم يكن مبدأ الأسرة القديمة قائماً على الذرية ولا على العطف بل ولا على الدين وإنما كان

قائماً على ضرورة الاتحاد والتحالف ضد الغريب . وهكذا كان يستحيل على الفرد أن ينتمي الى أسرتين في وقت واحد فالابن الراشد ، والفتاة المتزوجة يهجران الأسرة وينقطعان كل صلة لهما بها . ولم تكن لصلة الرحم أو أواصر الدم قيمة ما دامت لا ترمي الى تعزيز المجتمع العائلي . ففي البدء كانت القرابة لا تكتسب إلا عن طريق الرجال فقط . وكان التمييز والتفضيل سائدين بين الفتيان الذين يناط بهم الدفاع عن المدينة ، وبين الفتيات الهذيلات العاجزات عن حمل السلاح ، بل وبين الأبناء اذ أن البكر وحده كان يرث السلطة الابوية .

واننا نجد نفس هذا النظام الحربي في القبيلة أو العشيرة التي تؤلف الأسرة نواتها ، بل وفي المدينة نفسها . فمجلس الشيوخ مؤلف من جميع رؤساء الأسر والرعاة المتفيز ، إما في القتال بين صفوف الجيش أو في منتديات الفوروم ، أو في الحفلات الدينية ، فان المجتمع العائلي يلتف حول زعيمه محاطاً بأفراد العشيرة فتتألف من فردية ذاتية بارزة قوية . فلا يجد الغريب مكاناً له بين تلك الجماعات المتأهبة للحرب بلا هوادة ولا انقطاع ، ولا يشترك في تشريع المدينة ، ولا يستطيع أن يلجأ الى المحاكم . ففي آتينا لا يخضع الغريب للتشريع القاضي ولكن لاحكام الزعيم الذي يقود الجيش . ويرجع ذلك الى أنهم كانوا ينظرون الى الغريب نظرتهم الى عدو يختفي جانبه . اما في روما فقد انتدبوا لذلك قاضياً خصيصاً للفصل في الدعاوى . وكان هذا القاضي لا يستمد وحيه من القانون المدني المشرب بالروح الدينية الذي يعمل به في المدينة ويطبق على سكانها ، ولكن من العادات الشائعة في جميع الشعوب ويطلقون عليها اسم قانون الناس .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية — عندما سادت القوة من جديد على أوربا الوسطى وأوربا الغربية — جاء عهد الاقطاعيات نذيراً بالعودة الى عصر البربرية الأول . واختفى عهد السلم الروماني وخلفه عهد الفوضى . فاضطر السكان والفلاحون الى الالتفاف حول زعيم . فكان هذا الزعيم يكفل لهم نوعاً من الهدوء والطمأنينة يتناسب مع طاعتهم له واستعباده لهم وما يفرضه عليهم من الأتاوة والضرائب . فمن كان منهم لا يرغب في الخدمة أو يعجز عن اعداد عدته الحربية ، كان في الواقع بمثابة العبد لا يتمتع بأي قسط من الحرية . وهكذا لم تكن هناك مكانة لغير الجنود . وكان التابع الذي يرافق سيده الى

الحرب يمنح مقاطعة على سبيل المكافأة عن خدماته . فهؤلاء المحاربون كانوا يمتلكون جميع الأراضي . وقد ساعد ضعف النفوذ الملكي على استبدادهم وجعل من هؤلاء الأسياد السُلاّك ملوكاً صغاراً . فمزج التملك بالامارة . . . ان جوهر المجتمع الاقطاعي مشيد على أساس الروح الحربي .

ولا فائدة من ذكر الأسباب التي جعلت من الملوك أسياداً على الأراضي التي امتدت اليها سلطتهم تدريجيًّا وكيف سلبوا الأشراف سلطتهم تباعاً وأسندوا اليهم مناصب شرف بحتة ، وكيف فرقوا من جديد بين ملكية الأرض وبين ملكية الحكم ، وكيف جمعوا في شخصهم سلطة الدولة بأكملها . . . هكذا نشأت دول قوية واسعة منظمة مركزة . وهذه الدول في الواقع تمثل أشخاصاً معنويين يمتاز كل واحد منهم بمظهر جلي واضح ونفس جامعة . فجميع الدول — كبيرة أو صغيرة — مستقلة بذاتها ، وهي — إذ تضع خاتمها على وثيقة ما بمحض ارادتها واختيارها — تنعت نفسها باسم « الدولة العظمى المتعاقدة » . انها تشعر تمام الشعور بمكانتها وقيمتها ، كما تشعر بحقها في التصرف بمحض ارادتها ومطلق حريتها ، وتفتخر بسل ما يميزها عن جاراتها في الأوضاع السياسية والعملية والفنية والاقتصادية . . . إنها لشخصيات قوية ، ودافع الجنسية يحملها أحياناً على التمسك برأيها وعدم التسليم بما يطلب منها ، ولهب الوطنية لا ينطفىء فيها إلاّ بانطفاء نار الحياة . ولو قدر لتلك الجنسيات أن تستعبد يوماً فان نفسها في استعادة حريتها التي لا تنسخ بمرور الزمن لا تنعدم من صدور أفرادها ما دامت تلك الأمة تحافظ على شعورها بفرديتها الذاتية التي تميزها .

* * *

ان الرجل في العصور الأولى ، والقبيلة القديمة ، والأمراء الاقطاعيين ، والدولة الحديثة تخضع كلها لنفس القواعد في علاقاتها الخارجية . جميعهم يعاملون أشخاصاً طبيعيين أو معنويين لا يقبلون عليهم سيداً وينادون ، على رؤوس الملأ ، باستقلالهم ويفصلون في جميع المنازعات الخطيرة التي تنشأ بينهم ، بالقوة . فرجل المغاور والكهوف — عندما يؤوب من صيد مجدود — كان عرضة لأن يلتقي في طريقه بندّ أو غريم متربص لسلبه الفريسة قسراً وقهراً . وان كلاً منهما ، عند اقتسام الغنيمة ، كان يقدر ما يتمتع به غريمه من القوة والبطش ... أن

قانون الاقطاعيات قد أحلّ الحروب الشخصية مكانة كبيرة ، وأقرّ المبارزات القضائية . أما الدول الحديثة فإنها لا تعرف — لفض منازعاتها — الاّ الالتجاء الى السلاح وفي ظروف لا تقل في وحشيتها عن الفظائع الخرافية التي لسبب ارتكابها الى العصور البائدة . ان الحرب كما يقول المشرعون — هو العقاب الذي يفرضه قانون الناس وهو اللجة السامية التي يتذرع بها الملوك .

ان نير ان الحروب في الماضي — كما هي في أيامنا — كانت تندلع في كل مكان في وضح النهار أو تحت ستر الخفاء . فكان كل فرد يحاول أن يطغى على حرية جاره ، ويعمل على إخضاعه لارادته ويتخذ منه آلة لادراك مآربه ووسيلة لبلوغ مطامعه وثروته . كان الرجل الاول ذئباً يفترس الرجل مثله . وعند ما تمدينت الانسانية ظلّ النزاع قائماً تحت ستر من الهدوء والسكينة ولكنه أشد وقعاً وأفظع أثراً . فهو يتجلى في المنافسات الاقتصادية ، والمطامع المتبادلة ، ونزاع الطبقات ، واضطهاد الأقليات والخصومات الدولية .

« أنّ للطبيعة ، وأنّ للتاريخ !... المنافسة . المنافسة دائماً وفي كل مكان ، والحرب وانتصار القوة ، وقانون الجريمة والقتل . (هيايس) » ولقد دلل جوزيف دي مستر (ليالي بطرسبرج) على ذلك كله بعبارات مؤثرة تنطبق على الطبيعة بأسرها : « كم من فصيلة نباتية تموت ، وكم تطأ الأقدام غيرها في عالم النبات ؟ ثم انك لا تكاد تقرب مملكة الحيوان حتى تدرك أن الشريعة قد استمارت شكلاً بريعاً واضحاً . ففي كل قسم من أقسامها الكبيرة ميزت الشريعة عدداً من الحيوانات وأناطت بها افتراس الآخرين : وهكذا توجد حشرات مفترسة ، وزواحف مفترسة ، وطيور مفترسة ، ودواب مفترسة . فلا تمر لحظة من الزمن دون أن يفترس كائن حي كائناً آخر . وعلى رأس تلك الأجناس الحيوانية المتعددة المنوّعة يوجد الرجل الذي لا تترك يده المهدمة شيئاً من ذلك دون أن تحطمه وتبيده : انه يقتل لينغذى ، ويقتل ليدافع عن نفسه ، ويقتل ليتعلم ، ويقتل ليلهو ، ويقتل لذةً في القتل . فأي كائن سيسحق ذلك الذي يبيد الجميع ؟ هو ... ان الرجل هو المكلف بقتل الرجل » .

لقد اكتشفوا مع هيكل رجل من عصر قبل التاريخ إحدى الآلات النادرة التي كان يستعملها ، وهي بلطة من الصوان . كان قابضاً عليها بيده حتى في ساعته الأخيرة . ثم ان

الآثار الأدبية التي آلت الينا عن العصور القديمة كانت منقوشة بحروف هيروغليفية أو اسفينية على جدران المعابد الآشورية أو الكلدانية أو المصرية ، وهي في مجملها وصف للحملات العسكرية والمواقع الحربية وأسماء الشعوب المقهورة . فلنصغ الى قول أحد ملوك نازيرابال في وصف وقائعه الحربية : « وشيدت منصة عند باب المدينة ثم سلخت جلد جميع عظمائها وفرشته على المنصة ، وعلقت جثثهم فوقها وخوزقت غيرهم فوق قنها وخوزقت الباقين حولها . ثم جمعت رؤوسهم على شكل تيجان وشككت جثثهم بالدبابيس ونظمتها على شكل أكاليل من الأزهار » . وليس ما تغنى به سنا شريب تبجحاً أو وصفاً خيالياً عند ما قال : « لقد مزقت كالأعصار المدمر » . ثم إن رعمسيس الثاني كان يطلب أن يمثل وهو يجز أعناق اثنى عشر من الاسرى بضربة سيف واحدة .

ان سلسلة الفظائع الوحشية والحروب الآثمة الدامية تملأ صفحات التاريخ منذ القدم حتى أيامنا هذه . فالحروب الخارجية أو الداخلية ، والثورات ، والانشقاقات الدينية قد أسالت أنهاراً من الدم . أما العلاقات الدولية فانها قائمة على سوء الظن وعدم الثقة ولا تنفذ الا عن طريق الأساليب الدنيئة والوسائل المثيرة كما أنها لا ترمي الا الى مصلحة كل ملك أو كل بلد . فرعوة الموظفين ، وافشاء الاسرار الدولية ، واغتيال الرسل ، والاعتداءات الفجائية والخيانة بالعهود ، وإخلاف الوعود ، والإخلال بالمعاهدات المبرمة بطريقة رسمية ، ليست في مجموعها إلا من الأساليب التي كانت تتبعها حكومات الأمس . ومن يدري ؟ فقد تكون كذلك من أساليب حكومات هذا العهد أيضاً . فقد كتب أحد الفقراء الى مليكه : إن السياسة لا تعرف اللين ولا الاعتراف بالجميل ولا المعاهدات ، فالقوة أو المصلحة تحطم كل ذلك وتقصم عراه » . ثم ان بيتلذلد يشرح في مؤلف يدرسه رجال السلك السياسي نظرية شبيهة بهذه حيث يقول : « في الأحوال السياسية يجب على المرء ألا يسلم بالأفكار النظرية التي يعبر بها الدهماء عن معنى العدل والانصاف واعتدال الدول فآل كل شيء الى الشوكة والقوة . »

والحقيقة ان أغلب القوانين تقوم على أساس القوة ، وانه في سبيل تحويل ملكية الجماعات الى ملكية فردية كان لا بد من تدخل القوة لارغام التاركين على الشيوع على التخلي

عن ملكيتهم المشتركة لقطعة الأرض . فكان يخلفهم في الملكية تارةً أحد الغازين من الخارج وتارةً زعيم عشيرة أخرى تغار على عشيرتهم بقوة البطش والسلاح وعدد الأفراد أو مساعدة حلفاء ويهجمون تحت الغابة فتخضعهم لارادتها وتملي عليهم مطالبها . هكذا نشأ حق المالك الأول بعد اذ عرف هذا المالك كيف يقف في وجه الاغتصاب ، وهكذا نشأ أيضاً حق الفتح اذ ينجح الغازي في اغتصاب الأملاك التي يطمع فيها . ان القانون العام يعترف بتلك الحقوق وان كان يتردد في تسميتها بصحة أسمائها .

ثمَّ ان هذه الحقوق تتجلى خلال أوضاع القانون الخاص ، فاجراءات تأييد الملكية ووضع اليد والرهن العقاري تقوم كلها على أساس الملكية الفعلية . وتلك الملكية تستلزم — في بعض الظروف الخاصة — نقل اختصاص الملكية بأكملها . ان نقل ملكية العين من مالك لآخر ظلت وقتاً طويلاً موضع طقوس دينية رمزية ، وتسليم الجزء من العين وقطعة طوب أو مدرة من الأرض ليست إلاَّ من مخلفات عصر كان التمليك فيه يتم بنقل الملكية لطريقة مادية فعلية لا معنوية .

في فجر جميع المدنيات كانت الطبقة الحربية تندمج بطبقة الملاك . وكان عهد الاقطاعية يظهر في جميع العصور التي تتقدم أو تعقب تأسيس المجتمعات المنظمة . واننا نجده في ملكية الكلدانيين حيث كانت أرض الدولة مقسمة بين الكهنة الذين كانوا في أول عهدهم أحراراً ثم أخضعوا لنظام الضرائب . ونجده في مصر حيث كانت الولايات عبارة عن اقطاعيات قبل أن تتحول الى مقاطعات ادارية . ونجده كذلك في آسيا الصغرى مع سقوط الامبراطورية البيزانطية ، وفي أوربا الغربية بعد سقوط روما . ان نظام الاقطاعية يعد من أكبر دعائم المدنية الاسلامية ولا زال قائماً بين أمراء الأطلس المراكشي . وقد عرفت اليابان هذا النظام وظلت تعمل به الى عصر قريب . فهو نظام اجتماعي وسياسي يقوم بذاته عند انعدام سلطة مركزة حول رجال أقوياء تؤلف منهم القوة الجذابة للعناصر المنحلة .

وكذلك المجالس الاستشارية ، فقد استمدت كيانها من سلطة أعضائها وسطوتهم . ففي أول نشأتها كانت بمثابة مجالس عسكرية مؤلفة من جماعة من الرجال العسكريين يتداولون في الشؤون الحربية . ثم تناولت مداولاتهم الاختصاصات المدنية . لقد كانوا يحبون الوطنيين

الرومانيين عند اجتماعهم باسم « حامي الرمح » إحياءً لذكرى العهد القديم وتخليده . واستمرَّ اجتماع الأسباط عهداً طويلاً تحت السلاح اذا ما اجتمعوا للمداولة واقتراف القرارات وانفاقة على اجراءات ادارية ومدنية كالوصية أو التبني .

والنظام القضائي يشتق أصوله من هذا المصدر . فالقانون الأول كان قائماً على أساس أن كل فرد يقتص لنفسه من خصمه . وهذا النظام لا زال واضحاً في القانون الروماني القديم وفي الشرائع البربرية . ان قانون المرافعات الروماني كان عبارة عن مظهر من مظاهر القتال فكان الخصوم يقفون بالقاضي ويتظاهرون بالاشتباك بعضهم . ثم جاء قانون الاقتاضية فنظم حق استعمال الحروب الشخصية في شكل مبارزة قضائية . فكان الشركاء — سليلو الأسر الحربية — يأنفون الى عهد غير بعيد ، فض نزاعاتهم الاَّ عن طريق المبارزة . وقد استمرَّت تلك الطريقة متبعة حتى في عهدنا ، وما هي الاَّ إحدى مظاهر تلك العقلية القديمة .

يقول سبنسر : « في سنة ١٧٦٨ عرض في انجلترا مشروع قانون يرمي الى تحريم القتال القانوني . فلقي معارضة شديدة وأوقف تنفيذ المشروع . ولم يسادف نجاحاً وتم الموافقة عليه والغاء هذا النظام الاَّ عام ١٨١٩ » . ولم تحل الدعوى القضائية محل القتال المسلح الاَّ تدريجيًّا . فكلاهما من مصدر واحد وطبيعة واحدة وكلاهما يؤدي الى استعمال القوة تارة ضد العدو الخارجي وتارة أخرى ضد العدو الداخلي . ولم تكن الدعوى الأولى قائمة على تحقيق الحادث بواسطة أحد القضاة ولكنها كانت عبارة عن جدل وحوار ومشادة بين الخصوم وكان لا بد لهؤلاء الخصوم من الحضور بالذات اذ لم يكن نظام الدفاع بالنيابة معروفاً في ذلك العهد .

انه لمن أعجب العجب إن نلاحظ ، حتى في أيامنا ، ان اجراءات المحاكم تستعير بعض أدوارها من أدوار القتال بعد أن حل الكلام محل السيف . فالدفاع والمرافعات ليست إلاَّ ضرب من ضروب القتال تشتبك فيها سيوف الألفاظ البارعة وتتراشق فيها سهام العبارات القاذعة وتستعمل فيها جميع أساليب اللباقة والبراعة الخطابية . فكان لا يكفي لصاحب حق أن يكون على حق في دعواه ليربح الدعوى ، فلا بدَّ من الدفاع عن هذا الحق ودعمه بالعبارات الخلابة والاستعارات المنمقة والأساليب المقنعة . ولذلك فان القاضي كان لا يصدر

حكمه في غيبة أحد الخصوم أو في حالة صمته .

وليس قتال الرجل دفاعاً عن حقه والانتصار له قاصراً على تلك المبارزة بين متعادلين أمام القاضي . ولكنه يصغر ، بصفته عضواً في طبقة اجتماعية أو مهنة أو حرفة ، الى المناضلة ليدخل في التشريع الاعتراف بمصالحه الفردية أو التعاونية ، فالصغير ضد الكبير والضعيف ضد القوي ، لم يستطيعا التمتع بالعدل إلا بمداركة ضعفهما بالاتحاد لأنه دعامة القوة . ان قانون نابليون متحيز الى أبعد مدى لصالح صاحب العمل فأقواله صادقة في كل نزاع خاص بالأجور أو الأضرار بحقوق العامل . كما انه يعامل اتحادهم المؤقت ونقاباتهم معاملته للجرائم الاجتماعية . ولم تتمكن أكثر الطبقات عدداً — وهي طبقة العمل — من تحويل اتجاه القانون إلا بالحصول على حق الانتخاب المباشر العام . وتساوت الحقوق أمام القانون بعد إذ تساوت في القانون . وهكذا يصح اعتبار حق العامل ثمرة لانتصاره في نضال دام جيلاً بأكمله وقد أضت بعض الجرائم التي كان يعاقب عليها القانون من الحريات التي تقدسها الشرائع وتحميها . وهكذا ثابر الموظفون على مطالبهم طويلاً حتى تمكنوا — بعد نضال جبار — من الاعتراف لهم بحقوقهم النقابية والتعاونية .

* * *

ومع ذلك ، فهل معنى ذلك ان الحق ليس إلا القوة في علاقات الأفراد المستقلين بين بعضهم بعضاً ثم كلاً . فان اعتداء فرد على حياة عدوه ، أو سلبه ما يملكه بأكمله ، لا علاقة له مطلقاً بالحق والقانون . أما اذا هو رأى من مصلحته أن يحافظ على حياة خصمه ويحتفظ له بجزء من ممتلكاته ويعقد معه اتفاقاً يتعهد فيه المغلوب بأن يخلي المكان الى نده المجدود أو يشاطره إمتلاكه ، فإن معاهدة الصلح هذه تحمل بين طياتها طابع الحق الذي سينبثق نوره يوماً ، إن الاتفاق في مصلحة الطرفين : فأحدهما يضمن السلامة في النصر الذي أحرزه ويوافق على التنازل عن حصته في الأرباح ليطمئن على التمتع بالحصة الباقية ، أما الآخر فانه ، بدلاً من ضياع الكل ، يحتفظ — في سبيل استسلامه وخضوعه ، بجزء مما كان يملك وذلك يرجع الى أن الخصمين قاسا بين قوتيهما وتبينا العدام الفائدة في متابعة نضال نتيجته محصورة واضحة ، ووجدا أن مصالحهما تقضي بالتفاهم والاتفاق مع بعضهما .

وهذا الاتفاق يمكن أن يتم سواء بعد نشوب القتال ، إذا كانت حرارة القتال ونشوة النصر لم تعمي بصيرة الظافر ولم تزعزع ثباته ، وأمكن أن يشتبكا ، إذا ما تدبر كل منهما مقدرة خصمه وقوة ثباته . وإذا ما يفعلان التفاهم؛ فتسام عن حالة قتال مستمر مشكوك في نتائجه.

وفي بعض الأحيان يتداني الرجال وتتقارب الشعوب بدلاً من تمزيق بعضهم ، ويتحالفون ويقاتلون جنباً إلى جنب يجمعهم خطر مشترك : إنه تحالف مؤقت هجومي أو دفاعي . إن المعاهدة التي تعقب الحرب تقدر أتعاب الجهود بأقسام تجزئ النصر على أساس قوات الحلفاء . وإنهم ليسرون لأن زوال العدو المقهور من طريقهم لم يجعل منهم أعداء بسبب قسمة الغنيمة المشتركة بينهم فتؤدي الى حرب جديدة كثيراً ما يسقط فيها الذي أراق دمه أكثر خلال الحرب الأولى في سبيل المصلحة المشتركة .

وهكذا عند ما تتقابل قوتان متعارضتان فإنهما تصلان الى التحكيم . وهـذا التحكيم يوفق بين المطالب المتناقضة بنسبة القوات التي تؤيدها . وعند ما تتعاون قوتان من جانب واحد نحو غاية واحدة ، فان النتيجة التي تحصلان عليها تقسم بنسبة بأسهما وبطشهما . فهذا النوع من القانون الهندسي يخضع لتشرائع الآلية ، وليس إلاّ نتيجة مجموع القوات . وهو مثلها قابل للتغيير وبالتالي خاضع لاعادة النظر فيه وتعديله . فإذا اختلفت علاقة القوات فإن نقطة التوازن تنتقل وتتحول . وما دام لا يوجد إلاّ فردان أو جماعتان ازاء بعضهما فإن هذا الاحتمال قد يطرأ مراراً لأن كل يوم يغير بحول الظروف الداخلية والخارجية التي تكتنف الفرد ويتطور بداخلها . وإنه من غير المنظور — نظراً لتقوتين المتناظرتين — ان يزيد فعل الزمن من شدتهما أو يضعف منها بنسبة متساوية . فالعمر يزيد في قوة البعض ويضعف من قوة الآخرين : والذكاء الذي ينمو نوعاً ما يضاعف الموارد بنسبة متساوية ، والخلف يزيد عدد جنود الدولة الخصبة وعمالها في حين أنه ينقص من عدد جيوش الدولة العاقرة .

وربما لم يجد ذلك الفرض الذي أوردناه لتعليل نظريتنا ، مجالاً لتطبيقه إلاّ في جزيرة صحراوية نائية قد التقى فيها يوماً ما اثنان أو ثلاثة امثال روبنسون في عصور قبل التاريخ فالعادة هي أن يعيش الرجال أو الدول في وسط أمثالهم يتبادلون العلاقات مع بعضهم

ويتنافسون . ان ظروف احتكاكهم بعضهم كثيرة متنوعة والجهود التي تبذل في ذلك السبيل متباينة متعددة المصادر وكثيراً ما تكون عمايدة مستقلة . على ان نتائجها تظهر مع الوقت شيئاً فشيئاً في ازدياد مطرد غير محسوس . إن علاقات الافراد أو الدول بعضها مباشرة تتأثر بطريقة غير مباشرة بفعل العوامل الجذابة أو المنفرة التي يخضع لها كل منهم . وتلك العوامل التي تؤثر على ما يوجد تحت نطاقها وتحافظ على التنافس بين الجميع ، تنقاد بحركة جذابة تحدد لكل مكانه في نظام التوازن بتأثير الاعمال المتبادلة . . . لا يمكن أن يثار شيء بينهم إلا ويكون له تأثيره العكسي على الجميع وبذلك يثير تدخلهم . ويحافظ التوازن على كيانه على الرغم من بعض الهزات الخفيفة أو انه ينتقل طبقاً لحركة غير محسوسة تختلف عن تلك الهزات ليست عنيفة وتلك الانقلابات غير فجائية في الأوضاع الراهنة المقررة كالتي يثيرها اغتيال منظم ومدبر في صمت وسكون ولكنها تتجلى فجأة في معركة مساحة بين ندين متنازلين . وحينئذ يجتهد الطيران الذين يهتمون لنتائج هذا النزاع في حصر الافراط والتخفيف من ويلات معاهدة الصلح . خصوصاً وانهم سينظرون بغير ارتياح الى انتصار أحد الفريقين المتحاربين انتصاراً تاماً يعزز قوته ويعلي مكانته على الآخرين . ولذلك فعلى الرغم من عظمة النصر الذي يحرزه الغالب وعلى الرغم من الصداقة القائمة على الخوف التي يشعر بها الضعفاء نحو الأقوياء ، فان المقهور سيجد دائماً من مظاهر العطف ما يخفف عنه ويلات الهزيمة وشر الانكسار .

إن الأفراد أو الدول لا يجدون وسيلة يتقون بها طغيان أحدهم خيراً من المحافظة على نوع من التوازن بالتضامن والتحالف . وقد نشأ مبدأ التوازن الاوربي على أساس ذلك التضامن والتحالف . فقد رأت الدول الاوربية أن مصالحها المشتركة تقضي بألا تقوى إحداها بحيث يدفعها الطمع الى الرغبة في السيطرة على غيرها . فاذا حاولت إحدى الدول القوية ان تتوسع فان بقية الدول تشعر بأنها مهددة فتتحالف ضدها ، إلا إذا وافقت تلك الدولة القوية على ان تحالف بعضها لتشترك معها في قسمة الغنيمة وتنال بدورها تعويضاً كافياً لضمان المحافظة على توازن القوات . ان تشبث الملكية البرلسية في خصومتها للأسرة الملكية النمساوية ، وتحالف الدول ضد لويس الرابع عشر ونابليون ، وسياسة بريطانيا العظمى التي

اتبعتها منذ أجيال عدة وحافظت بموجبها على وجود جماعات متنافسة على الساحل الأوربي تؤيد بعضها كلما سنحت لها الفرصة، ليست إلاّ تطبيقاً لنظام التوازن الأوربي في الحالة الأولى. اما تجزئة بولونيا بين روسيا والنمسا وبروسيا فانه مثال واضح على فهم هذا التوازن وتطبيقه في الحالة الثانية . كما ان اتفاقية واشنجتون للمحافظة على الحالة الراهنة في المحيط الهادي وتحديد التسلح البحري بنسبة قوة الدول العظمى ، تقدم لنا بشكل أوضح مثلاً بيّناً جليًّا على تطبيق تلك الفكرة لأنها مدونة في وثائق رسمية .

وقد صادف مبدأ المحافظة على التوازن عوناً من التضاؤل والاضمحلال صاد إبانه مبدأ ثورة الجنسيات الذي نادى بحق كل جنس في تقرير مصيره وتنظيم شؤونه كما يريد . وقد استعملت المانيا وايطاليا هذا المبدأ في القرن التاسع عشر وحققتا وحدتهما عقب سلسلة حروب متعاقبة قوّضت دعائم التوازن القديم وبدّلت كيان أوربا الغربية . وبفضل الانقلاب العظيم الذي حدث عام ١٩١٨ في القارة الأوربية وانهارت له امبراطوريات الدول الوسطى ، تمكنت بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا من ارضاء مطامعها الوطنية ورغباتها الاهلية . على ان أغلب رجال السياسة يفضلون دائماً حسابات الموازنة ومقاومة الضغط ويقولون بأنها تحافظ على النظام الموجود وتستبعد خطر الانقلاب على الاساليب التي تؤثر على شعور الشعوب وتستفزها وتحول دون انفجار الشهوة الفكرية . إن برودون يسلم بذلك حيث يقول : « منذ ذلك العهد — عهد معاهدات وستفاليا — أضيف مبدأ التوازن على القانون العام بحيث يمكن القول — بما يتفق مع المنطق والحقيقة — إنه إذا كان حق النصر أو سبب القوة هو المادة الاولى في القانون العام ، فان تحالف الدول وفيما بعد التوازن الدولي ، تعتبر المادة الثانية فيه ». قال القيصر اسكندر لتاليران ذات يوم إن ما يلائم أماني الدول ويرضي رغباتها هو الحق واعتدال الدول بتأثير بعضها على بعض الآخر خير ضمان لحمايتها والمحافظة على حريتها . ومعنى القول أن الحق إذا فهم على هذا الأساس كان مقياساً للقوات وضابطاً لتوازنها . وهكذا يمكن القول بأن السلم لا ينال بواسطة الحق وان الحق هو الذي ينال عن طريق السلم .

* * *

ومع ذلك فان الحق لم يسمو ولم يبلغ القمة إلا بفعل الزمن . ان تأثير الزمن على تكوين الحق لم يوضح كما يجب وان كان قد شغل المفكرين ولا يزال يشغلهم فقد طالما فكروا في شرعية النظام الموضوع . فالكاردينال دي رتز في مذكراته ، وموتيني في محاولاته ، وباسكال في أفكاره ، وبوسويه في مكاتباته السياسية ، قد اهتموا جميعاً اهتماماً عجيباً بفكرة سقوط الحق . على ان ذلك لا يمنع من أن تكون تلك الفكرة في أساس القانون الخاص . ويمكن القول بأننا إذا رجعنا الى الأصل فاننا نجد سقوط الحق في أساس أغلب القوانين ؛ وإننا إذا عدنا الى الماضي البعيد فانه يتضح لنا أن التمتع بالملكية واجراءات التملك مرتبطة بسقوط الحق واجراءاته . فاستعمال بعض الحقوق وقتاً طويلاً يتحوّل إلى حق التمتع الفعلي وإن سلالات الملوك لم توطد دعائم حكمها وتنادي بشرعيته إلا على هذا الأساس . واذا كان هوج كابت ملك فرنسا قد احتمل تحقير الأشراف الذين كانوا لا يفتأون عن تذكيره بأنه مدين لهم بعرشه فان خلفه البعيد لويس الرابع عشر كان لا يحتمل أن ينازعه أعظم أمراء الدولة حقه وادعاءه بأن الملك آل اليه بأمر الله لا بفعل الاتباع . ثم ان القانون الدستوري أسس دعائمه على سلسلة اصطلاحات وعادات فلما تكرر تنفيذها أضحت مبادئاً شرعية . وهكذا الملكية الدستورية والحكومة البرلمانية في انجلترا . فقد كانتا نتيجة حتمية لارغام الملك — بعد نضال ونزاع — على اختيار مستشاريه ووزرائه من بين الأحزاب القوية . وأكثرها أعضاء في برلمان يتمتع بحقوق شرعية كما يتمتع بحق الموافقة على فرض الضرائب ورفضها . وهكذا تتحوّل الوسائل الى حقوق مكتسبة غير قابلة لأي نزاع أو اعتراض .

فبماذا نعلل فعل الزمن ؟ إن بعضهم يعلله بسهولة التطبيق وملاءمة الاختبار وتعذر الوسائل أمام المترافعين للرجوع الى ماض بعيد للبحث عن الأدلة لتأدية حججهم إذ تكون تلك الأدلة قد اندرست أو تلاشت بمرور الزمن . على أن هذا التعليل ، إذا كان مرضيًا من وجهة القانون الخاص ، فانه عديم الفائدة من ناحية القانون العام ، فهو لا يعرف سقوط الحق بالمعنى الصحيح ، ويطلب من الزمن الدليل بالوثائق الشرعية . فمن أين إذن نشأت قوة الحالات المكتسبة والأوضاع المقررة ؟ لقد نشأت أولاً عن العرف والتطبيق . فكل كائن حي ، إذا وضع في حالة مخصوصة ، لا يلبث أن يتعوّدها ويرتاح اليها والا كان مصيره

ازوان عند ظهور الوضع الجديد للاعياء . فهو لذلك يحصر كل قواه ليوازن بين نشاطه الصحي وبين القوة التي تؤثر عليه . ان النشاط الذي يتعذر عليه أن يبطله في ناحية تكون منطلقة في وجهه يتحوّل بأكمله الى المنافذ التي ظلت مفتوحة امامه . ان مرانه لاعضائه يزيدها قوة وصلابة ، وفي بعض الظروف يغير من أوضاعها وتركيبها . وعلى كل حال فان الكيان الحي يتطور وفي أغلب الاحيان يرتاح الى النظام الجديد ارتياحه الى النظام القديم ، ولا يحاول شيئاً للعودة اليه .

على أن الحالة الراهنة المستمرة تحمل على الظن بأنها أسمى من الحالة التي خلفتها ، لان في المحافظة عليها ما يحمل على الفرض بأنها ممترجة بالاشياء المحيطة بها ، وانها تظفر عليها بفضل الروابط المتينة المرنة التي تربطها بها . انه يتعوّدها ، أو قل ما يكون يرتاح اليها . ان الضغط من جانب قوتين ، أو بالاحرى من جانب دعامتها المادية التي تطبق على بعضها ، توازن بين مسطحاتها وتهيئها للالتحام فتلتصق ببعضها تماماً . فاذا كانت الاجسام المضغوطة ناعمة مصقولة فانها تنفصل عن بعضها بغير ما صعوبة إذا تلاشت قوة الضغط التي تجمعها . على انها في بعض الاحيان تشتبك ببعضها بواسطة خطوط متعرجة وتتعشق بروزها مع الوقت بحيث تقاوم كل ضغط ولا تكون عرضة للانزلاق . وقد يحدث أيضاً — تحت تأثير أدنى ضغط — ان البروز الخفية تدخل في الفوجات المقابلة لها وتملأ فراغها ، وإذ ذاك يتعذر التفريق بين هاتين القطعتين أو الجسمين الملتصقين مهما كانت الجهود المبذولة في سبيل ذلك قوية . فالقوات التي كانت فيما مضى متعادية تتحوّل الآن الى كتلة واحدة متلاحمة ثم لا تلبث أن ترتبط ببعضها روابط تزداد متانة وقوة يوماً إثر يوم . ان فعل الزمن قد جمع بين الندين وختم اتفاقهما بازالة أسباب الخصومة بينهما والتوفيق بين مطالبهما .

وهكذا الحال في مسألة الحدود الفاصلة بين دولتين . ان تلك الحدود ليست ، كما يتوهم البعض ، خطًّا هندسيًّا مرسوماً على الارض كما يرسم على خريطة جغرافية . فان تصور نطاق مستدير ثابت . تعيش الامم بداخله وتنطوي فيه أو تنزل بدخله ، ليس إلاّ نتيجة التصور المطلق والتجرد . والحقيقة ان الحدود منطقة حيّة متحركة قابلة للتعديل والتحرير في كل وقت يصطدم عندها نشاط شعبين وقواهما المتعارضة . انها حدود متحركة وعلى الرغم من

تباينها الظاهر فانها تتقدم أو تتقهقر باختلاف درجة انتشار الأمم أو قوة مقاومتها ، لأن التأثير المتبادل في هذين الشعبين يعمل ويتقلب في فسحة من الأرض واقعة فيما وراء الخط العرفي المتفق عليه بين السياسيين والقائم تحت تأثير ضغطين متنافسين من جانبين متباينين . ان ذلك التجاوز أو التوسع وراء محيط الدائرة يرجع الى ميل الشعوب التي تعيش بداخلها الى الاندماج ببعضها . فالحدود ، كالبشرة التي تكسو الجسد الحي ، تؤدي مهمة خاصة بها فتارةً تكون مهمتها قاصرة على صيانة ما بداخلها وتارةً تكون مهمتها البذل والمقايضة . فهي نقطة فاصلة يقف عندها الطرفان ولكنها أيضاً نقطة مرور يتجلى أمامها نشاط خاص . ففي الأصل كانت تلك الحدود عبارة عن منطقة محايدة لا يمتلكها أحد ، ولكنها كانت دائماً موضع نزاع ، وتمتد الى مدى يوازي المسافة التي تفصل بين جيشين . على ان المصالح والعادات قد قربت بين الخصوم الى حد الالتصاق ببعضهم وحولت نظرية تلك المنطقة المحايدة إلى اعتبارها المجرد والنظر اليها كخط هندسي رضي به الفريقان مؤقتاً . فهذا الخط إذن يجمع بينهما بقدر ما يفرق بينهما .

على أن سقوط الحق يتجلى في النزاع بين الخصوم المتباعدين بتوطيد الأوضاع المكتسبة ، كما أن عدم شرعية التمسك بالقوانين السابقة يحظر قلبها أو تعديلها . إذ الحياة لا تقف وحركتها لا تهدأ ومع ذلك فان الأشخاص الذين يعاملون أناساً يرفضون التسليم بالأمر الواقع لا يستطيعون التعامل إلاّ إذا سلموا بصحة الأمور كما كانت عليه وقت التعامل . ان الاجراءات القانونية أو السياسية سواء أكانت خاصة بملكية العين أو بحالة الأفراد أو بمصلحة الشعوب قد وضعت مع مراعاة وجود نظام للاشياء . وكل شخص ينفذ تلك الاجراءات تحت مسئوليته ويعرض نفسه للخديعة والغش إذا هو لم يفاوض صاحب الحق بالذات . على أنه من المستحيل الرجوع بالحوادث إلى ما وراء عهد محدود لامكان تقدير صحة الوقائع بأكملها ، إذ أن كثيراً من المعاهدات والعقود المبرمة ترتكز الى العقد المتنازع فيه وقد مرت — بعد التصديق عليه حتى الحوادث حتى لقد صار من المتعذر الغاؤه دون المساس بدعائم الحياة الاجتماعية وتحطيم صرح كبير من بنيانه . فهي انتزاع حجر واحد من الأساس ما يعرض جداراً عظيماً من جدرانه للانهيار . وكم يكون الانقلاب عظيماً وفظيعاً

لو أمكن الطعن في جميع الحقوق المكتسبة ونقضها دون اعتبار شرط الزمن الذي انقضى عليها ! ولكن الأعمال التي نستند اليها تحميها ، لحسن الحظ ، ضد مطالبات الاسترداد المطردة بلا انقطاع .

وهكذا يتحوّل الأمر الواقع الى حق . وهذا الحق يندفع الى الأمام مع حركة الزمن بغير رجعة . وارتباط تلك الحركة بأعمال أخرى يتعذر فصلها عن دورة الأيام ولا يمكن التغاضي عنها واستنكارها . ان تأليف القوات المتزنة يصبح ، بفعل الزمن ، عملية أساسية بل تكاد تكون ساحرة لشدة تأثيرها فتولد قانون العلاقات الخارجية بين الأفراد المستقلين .

الفصل الثالث

التعاقد والعرف

ان العقد هو الآلة التي يُسجل فيها عادة توازن القوات البشرية كمعاهدات الصلح والتحالف بين الدول والشعوب والاتفاقات التجارية بين الأفراد .

في البدء كانت العقود استثنائية وكان البدل بين فردين قليلاً جداً ، وكانت ملكية الفرد للأرض مجهولة حتى ظهرت الزراعة فرضعت عدداً لعصر البداوة . أما في داخل الأسرة والعشيرة الخاضعة لنظام تأديبي ، فالشيوعية الأصلية كانت لا تترك للملكية الخاصة إلا بعض المنقولات كالأسلحة والحلي أو الأواني المنزلية الصغيرة ، إلا أنه يخال أن طريقة نقل العين — عن طريق البدل — قد تقدمتها الهبة . فكان الضعيف يسعى إلى استمالة القوي واكتساب رضاه فيقدم له العطايا والهدايا . وتلك الهدايا كانت — في الأصل — قاصرة على جانب واحد ، ثم أصبحت بعد ذلك متبادلة للدلالة على الشعور القائم على الخوف والاحترام من الجانبين . فالوعد بالطاعة والخضوع من جانب واحد كان يتطلب من الجانب الآخر عاطفة عاملة ورغبة ظاهرة في تبادل المصلحة، خصوصاً إذا كانت صادرة عن شخص تمس مداراته لاكتساب مساعدته أو على الأقل حياده . ويقول سبنسر : « ليس من المستحيل أن تكون الميول المتبادلة أساس التعاقد الذي نشأ عنه البدل . لقد تعودوا — عند تقديم هبة ما — أن يرقبوا ورود هبة متساوية لها في الثمن او القيمة . وهكذا يجب أن يتم البدل بين الطرفين قبل أن تخمد جذوة العاطفة التي أوحت به . على ان العواطف سريعة التطور ، ولذلك يجب أن يتم التعاقد الذي تجلت فيه تلك العواطف ويُسهر في الحال أو في مدى قصير . وهكذا تكون الحال إذا كان البدل وليد المصلحة . فالصفقة تتم نقداً وعيناً إذ من الصعب الأمر ابرام عقد لأجل . وفي الواقع ، هل يمكن — بغير تدخل سلطة قوية — الاعتماد على حسن نية الأفراد لتنفيذ عهد أرجيء على الرغم من حصول كلا الطرفين على ما يقابل تعهداته

ووعوده ؟ ولقد كانت التجارة بين السياح وبرابرة أفريقا الوسطى تحاط بمثل تلك الأساليب، وكذلك بين العصابات والقبائل المسلحة . فقد كان أفراد الفريقين يقفون بكامل سلاحهم خلال المفاوضات وهم صامتون . وهكذا يصح القول بأن أول أوضاع البدل يقوم على التصور بأن الفريقين المتفاوضين قد عقدا هدنة فيما بينهما وإن تلك الهدنة واجبة الاحترام خلال المفاوضات . وأننا نجد في عقود بعض القبائل الهندية عبارات تحدّ وخصومة عنيفة تعبر عمّا يضمره المتعاقدون نحو بعضهم من شعور الحقد والضغينة .

ففي الأصل إذن كان عقد البدل ينطوي كذلك على معاهدة صلح لا تتميز عنه، إن لقوة الفريقين المتعاملين تأثيراً كبيراً على تحديد شروط المعاملة اقتصاديًّا، واتفاق الآراء والرغبات كثيراً ما يكون خاضعاً لعوامل الرهبة والخوف . ولا تتم الموافقة بين الطرفين إلاّ إذا فضلا الحالة الجديدة التي تنشأ عن اتفاقهما على الحالة التي كانا عليها مهما كانت أسبابها . وكل فريق يقدر ان ما يجب أن يناله لنفسه لا بد أن يمتاز كثيراً على ما يتنازل عنه لخصمه . ومن الأسباب التي تحمل على الاتفاق يوجد الضغط الذي يبديه الجانب القوي إلى جانب الاكراه وتأثيرات الظروف الخارجية التي لا تعمل على ارادة الفريقين بنسبة واحدة . ففي كل اتفاق تمتزج الحرية والاكراه بكميات غير متساوية ولكنها مع ذلك غير مهملة . فالحرية التامّة ليست من هذا العالم الذي يتحرك فيه الرجل في نطاق النسبية . ومع ذلك فان القوة وحدها ليست بمفردها كفيلة بالوصول الى عقد اتفاق . والموافقة بين المتعاقدين أمرٌ لا بدّ منه فهي بمثابة نزع السلاح والاستسلام الذاتي من الوجهة الاخلاقية حيال الضرورة المعترف بها . ثم إنّ المفاوضة لا تخرج عن كونها ضربٌ من ضروب القتال اذا هي لم تسفر عن مثل نتائجه . إن الغرض بل الغاية التي يسعى اليها كل فريق هي التغلب على خصمه — سواء بالقوة أو بالحجة — لاخضاعه لارادته وحمله على الاعتراف بضعف مقاومته وعدم الفائدة منها . فاذا أقنعه تمّ له النصر لأن المرء يعد نفسه مقهوراً اذا ساوره الشك في نفسه وتملكه اليقين بقوة خصمه ثم ان المفاوضة لا تتم إلاّ إذا أيقن فريق بعجزه عن دحض مزاعم الفريق المعادي وتفليلها فكلا الفريقين يتأثر بسلطة منافسه وصولته ويسلم له بشروط على أنه يفرض عليه — إرضاء لنفسه وانتقاماً لها — شيئاً من رغباته وارادته ، إذ أنه يندر أن يتم اتفاق بين

متعاقدين دون أن يفرض كل منهما على الآخر شروطه وامتيازاته إذ لا يمكن التسليم بأن أحد الطرفين المتعاقدين يتحمل بمفرده جميع التضحيات ، خصوصاً وان الاتفاق ليس إلا تسوية للمطالب سواء أكانت في المعاملات التجارية والمعاهدات السياسية . فمهما كانت مزايا الموقف الاقتصادي أو الانتصار الحربي — ان لم يصحبه سحق العدو تماماً — فانه لا يؤدي الى الاتفاق أو إلى الصلح ما لم يتنازل الطرف الأقوى عن جزء من الحالة المكتسبة ليحمل الخصم على تفضيل الاتفاق على القتال والبدل على التمنع والتوقف . إما اذا اصطدمت المطامع فليس مايحول دون وقوع التوقف والقطيعة . إن النشاط اذا لم يكن محصوراً وكان موزعاً صعب جمعه بعض الوقت وضعف شره . والارادة مهما كانت قوية ، إذا هي لانت بعض الشيء ، رضيت بالتحكيم وخففت من غلوائها ومزاعمها . ان القبول والرضى هو الرضوخ وذلك الرضوخ اليائس في غيبته عقوبة أشد وأعظم — هو الذي يضمن الانتفاع بالتعاقد وقتاً من الزمن .

ولنذكر — على سبيل المثل بين رئيس ومرؤوس — التعاقد في عهد الاقطاعية . فذلك التعاقد كان يفرض على التابع والمتبوع واجبات متبادلة ولكنها غير متساوية . ان التفاوت في المساوات بين المتعاقدين يظل قائماً وانه ليزداد — في بعض الظروف — خطورة في أيامنا وان كان في أوقات أقل اضطراباً من تلك . فتساوي الشروط في المجتمع من الشواذ لا من القواعد المقررة . ويكفي أن نقارن بين حالة صاحب صناعة كبيرة وحالة العامل الذي يستخدمه وبين شركة سكك حديدية والمسافر الذي يريد ركوب القطار ، لنتبين الفرق بين الحالتين ! فهل يمكن أن يتبادلوا المعاملة على قدم المساواة ؟ ان البائع والمشتري — في أية عملية تجارية تقريباً لا يتمتعان بمطلق حرية قبول التعاقد أو رفضه فتأثير العرض أو الطلب يرجح كفة أحد الطرفين على الآخر . فقد توجد لدى أحدهما أسباب شخصية وظروف قهرية تجعله في قبضة الآخر : كحاجته الى نقود ، أو عدم استطاعته التخلص من قيود احتكار ، أو غير ذلك من الأسباب التي يختلف تأثيرها ومفعولها بحيث يمكن القول بأن جميع العقود خاضعة للمؤثرات وان فائدتها ترجع الى أحد الطرفين دون الطرف الآخر .

ان للمعاهدات الدولية صفة كهذه . إذ أنها كثيراً ما تصل بين دول متباينة في القوة

تباينًا عظيمًا أكثر مما تصل بين الأفراد . فهل يمكن أن تقاوم الدول الأمبراطورية العظمى نزعة التكبر والأنانية التي تمتاز بها وتتنزل عنها لتتفاوض امارات مئيلة أو جمهوريات صغيرة مقاومة الند للند ؟ يقينًا لا . . على أن الدول — أو قلما يكون في عيدنا — مرتبطة بالأرض التي تملكها وهي لا تستطيع أن تقصر علاقاتها على أمور ثانوية ومنازعات مستمرة ، أو على عمليات تبادل أو مقايضة تنفذ في وقتها على ألا تتجدد الا نادرًا أو لا تتجدد مطلقًا . أما البلاد المتلاصقة أو المجاورة لبعضها فتنشأ بينها علاقات وطيدة مضطردة ، لآجال طويلة ، وترمي الى ايجاد حالة مستديمة : كتحديد الحدود ، ودفع الجزية . ومعاهدات تجارية . أما عقوبة الارتباطات المتبادلة والالتزامات فموقوفة على احتمال العودة الى القتال العلني أو المستتر الذي تلافيا وقوعه ووضعا حدًا له . وإذن ما الفائدة من تحديد اختبار نتائجه معروفة ؟ وما دامت قوات الأمم المتقابلة لا تختلف فان مآل النزاع لا يمكن أن يكون موضع شك .

إن شروط الاتفاق تنبيء بتلك الحالة . على أن الحالة المتبادلة التي يوجد عليها الطرفان يمكن — مع ذلك أن تتغير بين النتيجة وبين تنفيذ الاتفاق ، وآنئذ تظهر الحالة جد دقيقة . إن التعاقد لم يبرم ليكون خالدًا . وعبثًا يحاول أن يجمع بين حلقات المستقبل في سلسلة واحدة . تلك عمليات واجراءات وقتية قائمة على الخيال ووضعت لمجرد الانتقال من حال الى حال . ويتجلى ضعف العقد عندما يحاول أن يضم عهدًا طويلاً اذ أنه يتعدى الادراك البشري . إن التنفيذ الذي يتطلب سنينًا طوالاً يتأثر بحوادث غريبة عن صلب التعاقد . فالمشرع أو القاضي وكذلك الطرفان المتعاقدان ، يستندون جميعًا — لتعديل شروط الاتفاق — الى الظروف التي يتعذر فرضها أو وقوعها عند ابرام التعاقد . وحينئذ لا يبقى من الاتفاق إلا شكل العقد ان لم يُلغ بأكمله ، ويتخذ شكل شركة لم تقم إلا تحت ضغط الحوادث . وهذا هو سر ضعف المعاهدات الدولية . « إن المعاهدات — كما يقول سوريل — هي رمز للعلاقات القائمة — وقت ابرامها — بين القوة المادية والقوة الأخلاقية التي تتمتع بها الدول المتعاقدة . وتظل تلك المعاهدات قائمة بنسبة تقدير تلك القوات ، أيًا كان ذلك التقدير . إن الحقوق التي تفرضها لا تتجاوز مطلقًا الشروط التي تقررت فيها تلك الحقوق » .

إن التعاقد الصحيح لا يربط الأفراد أو الدول إلاّ بنقطة واحدة ولأمد قصير . ولذلك فهؤلاء الأفراد أو الدول يظلون في عزلة عن بعضهم في كل ما ليس له مساس مباشر بمصلحتهم ويقول دوركهيم : « إذا نحن نظرنا الى الأشياء في أعماقها فاننا نجد أن انسجام المصالح يخفي نزاعاً مستتراً أو قل ما يكون مؤجلاً . والواقع أن المصلحة في هذا العالم أقل الأشياء ثباتاً . فأنا اليوم أرى أن مصلحتي في أن أتفق معك ثم يصبح نفس السبب غداً وسيلة لأن أقف في وجهك وأكون لك ندًّا . فهذا السبب لا يمكن أن يُوجد إلاّ علاقات وقتية أو بمعنى أصح اقتراناً لا يتجاوز يوماً واحداً . »

* * *

إن الحق الأصلي الناشيء عن المنازعات والاتفاقات المتعاقبة ، مليء بالمراسيم والتشريع . وليس أسهل من تفسير ذلك ، فالمراسيم تدل في ظاهرها على حالة كل شخص من الأشخاص الذين يجتمعون . وما الانحناء والتحيّات والاحترامات التي يبدونها لبعضهم إلاّ أوضاعاً مخففة ورمزية لحركة الرجل — في العصور الأولى — إذا أراد أن يقدم خضوعه التام فانه ينبطح على الأرض بغير سلاح بحيث لا يستطيع أن يبدي أي حراك أو مقاومة ، أو إنه يحني رأسه للدلالة على أنه يقدمها الى خصمه الظافر . أما في عهدنا ، فان الرجل المتمدين ، عند ما يتقدم بالتحية ، ينزع قبعته ويعيد حركة الرجل الهمجي الذي ينزع عنه كل شيء رجاء أن يحظى من خصمه بالحلم والرأفة . وكذلك المراسيم السياسية فانها تمثل العادات القديمة في شكلها الحديث الذي اكتسبته بعد أن تطورت تدريجيًّا مع الزمن تطوراً مستتراً غير محسوس . فإجراءات الحرص التي كان يتبعها المتعاقدون في تلك العصور النائية وسوء الظن الذي كان يساور نفوسهم قد تحولت الى علامات الاحترام التي يتبادلها الأشخاص الرسميون عند ما تبدأ العلاقات بينهم . وتلك المراسيم تدل على المساواة بين الخصوم — مع بعض التفاوت — إذا كانوا متقاربين في المكانة والتمثيل أو عدم المساواة بينهم بتاتاً .

إن موضوع الشكل يشغل المكانة الأولى . ولقد زعموا كذلك ان الحرب ضرب من الاجراءات القضائية . وان الأصح أن يقال ان تلك الاجراءات هي الحرب بالذات ، لأن وجود المحكمة يسبق القاعدة التي تنشأ عن القرارات التي تصدر عنها . واذن يكون من أهم

الأمور أحوالهم عن الطريقة التي سيلتقي بها الخصوم ، وفي أي ظروف يستطيعون الانتفاع بالوسائل التي لديهم . ان نتيجة المرافعات أمام المحاكم رهينة بالاتفاقات المقررة لطلب التحكيم في الخلافات الناشئة عنها أكثر مما هي رهينة بصحة دعوى أحد الطرفين وقوة حجته . ان حق السلم أو قانونه شبيه بحق الحرب وقانونه ، لأنه يحل محله مع الاحتفاظ بنية الرجوع اليه اذا ما خيبت النتيجة الأمل المعقود عليها .

على أنه لن يتخلص عنه الا ببطء متناهي إذ أن محكمة العدل في العصور القديمة كانت مؤلفة من رجال السيف . كان أحد أتباع شارل الأصلع إذا ما دعا الخصوم الى المثول أمام المحكمة طلب اليهم أن يأتوا بكامل سلاحهم وينبئهم بأنهم قد يقاتلون بعضهم تأييداً لصحة دعواهم . أما في انجلترا فالمحكمة التي تتولى تنفيذ الاجراءات القانونية للتسليم الأرض لمالكها كانت في ذلك العهد مؤلفة من رجال السيف والحرب . وكان من حق كل فرد يتمتع بالحرية أن يطلب محاكمته أمام محكمة مؤلفة من الأمراء التابع لولايتهم . وكانت المنازعات تقضي بتطبيق قواعد القانون أكثر من استعمال وسائل التوفيق بين المزاعم المتناقضة . فكان القضاة يحاولون تبسيط تلك القواعد لوضع حد لحالة الحرب لأنها أساءت إليهم أكثر مما أساءت الى المتقاضين أنفسهم . ولا شك في أن نظام الصلح في نظير دفع غرامة مالية ، قد وضع لحقن الدماء ووضع حد للانتقامات الشخصية وقد تعدّلت تلك الغرامة — مع مرور الزمن — بتحديد مبلغ اجمالي ثمناً للدم الذي أهريق . وإننا نجد في المرسوم الملكي الذي صدر عام ١٢٩٦ يمنع المبارزات القضائية والحروب الشخصية ابان وجود الملك في حرب خارجية دليلاً على الأسباب القهرية الدافعة الى الاحتفاظ بالسلم الداخلي . وكذلك القانون الجرماني القديم فانه كان يفرض على الضعيف تقديم الدليل لأن مصلحته تقضي بأن يتلافى غضب المعتدي . ولهذا السبب يقولون أن الدفاع مكلف بإيراد البرهان . إلا أن تلك القاعدة تنقلب الى العكس اذا كانت الحالة الاجتماعية مترّبة مركّزة وكانت تستند الى صلح أضمن وأنسب ، فان القرائن تتجه لصالح المدّعى عليه الذي يتمتع بالحيازة الفعلية وتعضد الاتباع . وهكذا يكون واجب المدعي إثبات حقه بالبينة والبرهان .

ويسوّى النزاع القائم بين فريقين بطريق الضغط المتوالي من جانب جميع من يهمهم أمر

المحافظة على السلم أو إعادته ويأمر الحكم بعلاقة القوات المائلة المتنازعة . ولا يمكن اعتبار هذا الحكم حكماً صحيحاً ولكنه يُعدّ وساطة مسلحة .

تلك أيضاً أبرز صفات القانون الدولي الذي بني على ما كان عليه منذ عهده الأول . فانه يشمل قواعد لغرافات أكثر مما فيه من قواعد أساسية تطبيقية . وليس التحكيم وسيلة لفض المنازعات ولكنه يُعد وسيلة للتوفيق بين خصوم يفضلون وساطة فريق ثالث للعادلة بينهم بدلاً من الالتجاء الى السلاح لفض نزاعهم . إن دعوى التحكيم التي تحيل تسوية النزاع على قرار تحكيم تهتم باختيار المحكمين أكثر من اهتمامها بالمبادىء التي يستندون بها . والحاكم أو المشرع أو المحكمة المناط بهم أمر الفصل في النزاع قلّ أن يهملوا الخصوم دون إرضائهم بعض الشيء ، وعصبة الأمم التي أنشئت حديثاً ليست إلاّ مجتمع من الرجال السياسيين . وتأليف محكمة العدل الملحقة بها قد سبقها اجراءات تشريعية وإنشاء شرطة دولية . وهذا التناقض في الاجراءات يعتبره التاريخ منطقاً سليماً .

إن القانون العام كان في وقت ما وفي جميع أنحاء العالم ، مجموعة معاهدات مرتبطة ببعضها ومعبرة عن علاقة القوات وأداة للمصالح في العصر الذي عقدت فيه وهي تقوم عادة على أساس عقد دولي له صبغة عامة وأبرم لوضع حد لعهد قتال وحروب . فمعاهدات وستفاليا ثم معاهدات فيينا وفي عهدنا مجموعة معاهدات فرساي وسان جرمان ونويي وتريانون قد ألغت تباعاً قانون أوروبا العام وضمنت السلم في الجزء الغربي من العالم عدة سنوات .

وفي الختام نرى أن نأتي على صورة أخيرة للتشريع في العصور الأولى وتلك الصورة تمثل صفة العقوبة التي تتخذ مظهر الانتقام أكثر مما هي عقوبة للردع أو الارهاب . وهي ترمي إلى إيضاح أوضاع الجريمة المرتبطة بها . فجسامة العقوبة لا تقاس فقط بفظاعة الجريمة ولكن الضرر الذي يحاق بالمجرم يكاد يشبه في ظروفه ونتائجه الضرر الذي لحق بالضحية .. عين بعين وسن بسن . . . إن شريعة الاقتصاص من المجرم بنفس جرمه لأعظم دليل على ذلك . ثم أن اجراءات قمع الفتنة تتخذ شكل الفتنة بالذات ، فالمخالفات التي تدل على شعور مسفر تكون موضع عقوبات مخجلة كالسوط والتشهير والتعرية والسخرية ، والمخالفات الناشئة عن الطمع والجشع يعاقب عليها بالغرامات المالية ، إن شعور الانتقام يرتاح ويهدأ

لتلك العقوبات التي توجد صلة بين العقوبة ونوع الجريمة ، وليس بين العقوبة واستعداد المجرم . إن القانون القديم كان لا يهتم بإصلاح حال المجرم أو ارهاب من يدفعهم الغرور والمثل السيء الى التمثل به فهو يذهب الى أبعد من ذلك إذ هو لا يبحث عن سبق الاصرار أو التعمد . ولذلك فان من يحدث أو يسبب في ضرر ولو بغير عمد أو قصد ناله نفس العقاب الذي ينال مرتكب الجرم مع سبق الاصرار .

فهل يفهم من ذلك شيء غير أن الفكرة الأساسية في هذا التطبيق هي إيجاد نوع من المعادلة والتوازن ؟ وأن الضرر الذي كان يحدث لا يتم إصلاحه عن طريق التعويض المادي ولكن عن طريق هدم ما يتناسب معه ويوازيه ؛ وأن كل عذاب يجب أن يعوض عنه بعذاب يماثله ويتساوى معه . ان التكفير عن الجرم يعتبر نوعاً من أنواع المقاصة . ولا زالت المنازعات بين القبائل الهمجية حتى في أيامنا تصطبغ بتلك الصبغة . فهناك قبائل تقوم بغزواتها لمجرد الاضرار بحقوق الغير بما يوازي الضرر الذي لحق بها ، فاذا تساوى الضرر الذي أحدثوه بالاهانة التي لحقت بهم كفوا عن عملهم وارتدوا من تلقاء أنفسهم .

وستظل تلك الحروب الخاصة قائمة ما دام المجتمع لم يصل الى درجة من النظام كفيلة بالمحافظة عليه وما دام ضمير الجماعة لا يؤثر على شعور الأفراد ويكبح جماح الحقد ونزعة الانتقام التي تتملك نفوسهم بتهدئة الخواطر وتخفيف بعض العقوبات الوحشية وكذلك بتشديد بعض العقوبات البسيطة الكافية التي تطبق على بعض الجرائم التي ينظر اليها الخصوم فيما بينهم بشفقة متبادلة وإن كانت عواقبها تعود بأضرار جسيمة على المجتمع . وقبل أن يصل التطور إلى تلك المرحلة الأخيرة التي تعتبر فيها الدولة الجرائم الخاصة جرائم عامة فانه يتقلب في ثلاث مراحل : مرحلة الانتقام الشخصي ، وهذا الانتقام لا يخرج عن كونه حالة حرب قائمة بين عائلات أو جماعات مستقلة ، ومرحلة الصلح بواسطة المال وهو لا يعدو عن كونه نوع من معاهدات الصلح المتفق عليها طوعاً برضاء الطرفين بعد إذ سئما القتال ويعمد إذ شعرا بتعادل قوتهما تعادلاً محسوساً وآنئذ يعدل المعتدى عليه عن انتقامه ، كما يعدل المعتدي — الذي يخشى ذلك الانتقام — عن متابعة هجومه (ذلك هو القانون الجرماني وقانون الاثني عشر لوحة) . ثم المرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة الصلح المشروع الذي تفرضه

الدولة وتحدد شروطه . إن جميع الشعوب المتمدينة قد مرّت بتلك المراحل . وفي عهدنا هذا نرى في قانون العقوبات في الحبشة ، إن الجرائم الموجهة إلى أفراده ، وجرائم القتل والسرقة ، ليست خاضعة لاجراءات قانونية إلاّ بناء على طلب أولي الشأن الذين لهم الحق في التنازل عن طلب العقوبة أو المفاوضة وحسم النزاع بمعاهدة صلح . ان الشعب الحبشي لا يشعر بشدة الضرر الذي يلحق بالمجتمع من جراء تلك الاعتداءات الشخصية .

على أنه قد ظهر أن الضمانات التي يمكن الحصول عليها من جراء تدخل الدولة في المنازعات التي تنشب بين الجماعات — إذا كانوا مستقلين — أفعل وأشد أثراً من الضمانات التي يتمتع بها أعضاء الأسرة الخاضعين لتأديب الأب في الجرائم التي تتأثر منها الأسرة وحدها . إن حق توقيع الجزاء بين الجماعات في عهد النظام الأستقي كان ينفذ بغير ما رقيب، إلاّ الرأي السائد في دائرة الأسرة المتحدة بشعور واحد . إن حق الموت أو الحياة الذي يتمتع به رب الأسرة نحو زوجه وأعقابه وعبيده لم يكن منظماً أكثر من حق الوالدين في تأديب أولادهم المعترف به في التشريع العصري . فهذا التخفيف المضطرد من جهة ، والامتداد الحكمي في سلطة الدولة في قمع جرائم وخالفات الخدم تبين نمو العهد القانوني الذي تحقق بالتوازن على العهد الذي يتولد من نظام الأسرة القديم حيث كانت السلطة تسيطر دون وجود سلطة أخرى تعادلها .

* * *

وإنه نظراً للتكرار فان بعض الأعمال والتعاقدات قد اكتسبت قوة الحق الثابت المفروض — لا بطريقة مكرهة وفي اطار محدود — ولكن في شكل ظاهري عام وتحت تأثير السوابق المتعددة . وهكذا تقبل تلك الأعمال والتعاقدات بغير اعتراض أو مقاومة لأنها فُرضت باعتبار أنها نتائج لضروريات الحياة العامة . فهي ايضاح وتفسير لنوع من التوازن أو بعبارة أصح هي نوع من التعهد والتعاقد .

والعمل الأعامي لا يقل شرعية عن الأعمال التي تعقبه وتضرب على منواله . ان العرف المصطلح عليه لا يخلق حقاً : انه يكشف عن هذا الحق ويظهره وهو لذلك يزيده قوة . فالتدليل بالأمثال المتكررة على كيفية التوفيق بين المصالح المختلفة المتعارضة في حالة محدودة

ويحمل المترددين على الاذعان إلى حل قد يكون مفروضاً بالقوة ، فيترتب على ذلك تفضيل هذا الحل وقبوله لتلافي الضرر الذي ينجم عن مقاومة غير مجدية . وعلى كل حال فان العلاقات التي تقوم على أساس واضح وعبارات جلية ظاهرة تنجلي عن حالة مستقرة . وتلك الحالة قمل أن تتغير بظهور الأحوال المتعاقبة أو انتقالها .

وهكذا نرى ان أنسب الطرق للعمل وأكثرها ملاءمة لنظام الأشياء المقرر ، تتكرر وتزداد باطراد مستمر فتخلق عادات تتحد مع الوقت صفة القواعد الثابتة . ان الأمر الواقع يرمي إلى التداول والتكرار إذ هو ينطبع في مجموعة الأعضاء والوجدان وينساب شيئاً فشيئاً من الشعور المفكر إلى أعماق اللاشعور . فتطبيقه المتبادل يعزز ما تقدمه من العلاقات الأولية غير المرتكزة .

ان الاستعمال يتطور رويداً رويداً بفضل التعديلات التي تدخل على نظام الأشياء الطبيعي فيساعد ذلك — وبدون أي خطر يذكر — على ايجاد تطبيق جديد . أما إذا تحولت الحالات بسرعة فان الثقة في الاستعمال تصطدم بحدوث انقلابات ومفاجئات قد تكون سبباً في وقوع نكبات حقيقية . وهكذا تسود — خصوصاً في النظام الدولي — حالة عدم استقرار تحول دون تنفيذ كثير من الآمال العظيمة والأفكار السامية التي ترتبها الانسانية وتعلق عليها مستقبلها .

ان الحق الذي يستخلص عفواً من العلاقات الخارجية يتجلى عن صفات تميزه بكل سهولة فوحشية أصوله وصلابته تجعل منه آلة يصعب استعمالها وعلى جانب عظيم من الخطورة . انه سلاح لا يخلو من الشر والايذاء حتى مع من يستعملونه بحذر واحتراس . وهذا السلاح يحمله الأقوياء الأشداء بقدر ما يحمله الضعفاء المستكينين . ولا شك في أنهم جميعاً يشعرون بأنه حمل ثقيل إذا هم لم يستعينوا بكل قواهم على حمله .

وعلى الرغم من ذلك فان هذا الحق يُعد انتصاراً على القوة الغاشمة ويخفف من غوائلها وافراطها . ولكنه يمتاز بعيب ظاهر وهو عدم الاستقرار خصوصاً اذا كان صادراً عن توازن عدد قليل من العناصر . ولما كانت هذه العناصر لا تتبع نظام الأشياء الجامدة ولكنها تتبع كائنات حيّة خاضعة للتحول ، فأي تحول في نشاط إحدى هذه العناصر يكفي

لتحطيم التوازن والاخلال بتسيير أجزاء الجهاز اخلالاً كبيراً . وهذا الجهاز في ذاته غير مغلق . فهو مؤلف من عناصر مختلفة العدد متنوعة ، ويظل مفتوحاً ومعرضاً لتدخل عوامل جديدة تستطيع — هي أيضاً — تحويل استعداد الاطراف تحويلاً كلياً .

وفي النهاية يعمل كل واحد من تلك العوامل بطريقة كلية في اتجاه واحد وبقوة شاملة ناشئة عن الاتجاهات المختلفة أو المعارضات . وهذه الظروف مجتمعة تساعد على ايجاد التوازن المعرض للانهيار تحت تأثير الاهتزازات الوحشية والاختلاجات غير المنتظمة . وان الخلل ليكون أشد خطراً وأعظم بتدمير ما تكون القطيعة فجائية . ثم ان تلك الاهتزازات تقطع الروابط التي تكوّن بين الأطراف المتعاملين وتقوّض دعائم الحوار وتغير الاتجاه الذي كان بارزاً للآن على كل عنصر من العناصر التي تؤلفه .

ان هذا الحق ناشيء من امتزاج القوات الخاضعة للاعمال والتأثيرات المحلية والعرضية. وينقصه في الداخل دعامة مبدأ رئيسي يسيطر عليه تفوذ سلطة كفيلة بحسم النزاع وفضه . ان مثل هذا الحق ناقص إذ انه يفتقر الى القاعدة الصريحة التي تعد بمثابة تشريع ثابت منتظم. انه مجموعة من القوات المتعارضة التي ترتكز الى بعضها وترتفع ببطء كالقبة المتداعية لا يحول دون انهيارها الا القواعد والعقود التي تسندها . ومع ذلك فالمرء يرتاح الى الالتجاء تحتها عسى أن يجد فيها مجنباً أو ترساً .

فاذا كانت القوة والحق يختلفان تماماً في الجنس والطبع . واذا كانا — للاسباب المتعارضة التي ينشآن عنها — يقصي أحدهما الآخر ، فان تعاقبهما يصبح أمراً محتوماً ، وانه لمن العبث أن يرجى للانسانية مستقبل أحسن . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فالسلم يعتبر حالة خاصة من الحرب كما يعتبر توازن القوات حالة من التحور الاجتماعي . والسلم — وهو أسمى معاني الطير — هو الحق كما ان الحرب ليس الا مظهر من ثورة القوات على بعضها .

الفصل الرابع

الحق العضوي للعلاقات الداخلية

في الطبقات السفلية من العالم الحيواني تتألف جماعات ذات صبغة مبهمة نتيجة تكدس الخلايا وعلى الرغم من أن تلك الخلايا ميالة الى العيش عيشاً مستقلاً حرًّا . وتلك الجماعات الحيوانية — أو كما يسمونها المستعمرات — مؤلفة من عناصر ، وإن ظلَّت في بدء تكوينها منفصلة متباينة ، إلاَّ انها باتحادها مع بعضها تؤلف فردية ، وتلك الفردية تمتص تدريجيًّا فردية الاعضاء التي تكونها : « لأن اتصال الأنسجة التي تتألف منها أعضاء المجموع لابدَّ أن تؤلف في الواقع فرداً » . وما دامت جميع الخلايا متلاصقة فان المجموع لا يستطيع أن يتنقل إلاَّ بحركات اجمالية ولذلك فهو يشرك جميع موارده الحيوية بفضل انسجام أنسجته وقابليتها الى الترشيح . ثم ان تلك الخلايا — بفضل انسجامها وتشابهها — تتخصص في وظيفة لا تلبث مع الوقت أن تميزها عن بعضها بتطبيقها على العمل الذي يلائمها : إن الوظيفة تخلق العضو . والأعضاء بدورها تخلع على الجماعة تركيباً محدوداً بفضل وضع الأعضاء ونموها . ويذهب كثير من العلماء الى القول بأن ذلك هو السبب المباشر ونقطة البدء في التطور حتى في طبقة الحيوانات الفقرية التي تمتاز بعقليتها السامية الى حدٍّ يتعذر العثور فيها على آثار التكوين الاستعماري .

ومهما يكن من أمر ذلك القياس التطوري فإن حركة التطور التي لخصناها تضع نصب أعيننا صورة من ظاهرة الاشتراك التي أعقبت — بطريقتين مختلفتين — أرقى اوضاع المجتمعات . فتكوينها يتجلى أحياناً من تماسك الوحدات المتفرعة عن أصل واحد ، وأحياناً ينشأ من اتحاد الجماعات التي كانت مؤلفة من قبل . فالأولى تعتبر مجتمعات بسيطة والثانية تعد

مجتمعات مركبة قد تتقابه أعضاؤها في كثير من النقط ، وترمي الى الاندماج بعضها اندماجاً كليًّا .

وكما أن تلاصق الخلايا في الجماعات الحيوانية قد أدّى الى تكوين وحدة فردية هي من جهة أسمى من وحدة أعضائها ، ومن جهة أخرى تعمل — بفضل الأعضاء المتباينة — على ارضاء حاجاتها المشتركة ، كذلك المجتمعات البشرية ، سواء أكانت بسيطة أو مركبة ، والأسرة ، والمدن ، والدول ، فانها تتقارب عرضاً بروابط واهية ومتقطعة ، ثم تشترك باتفاقات أقل انقطاعاً وأكثر استقراراً تحت تأثير القوات المتوازنة الثابتة مما جعلها تندفع في حركات اجمالية أدت الى اكتشاف فوائد التعاون والتعامل وتبادل المصالح المشتركة . ولقد كانت الحرب — في كثير من الأحوال — بما تجره خلفها من ويلات وأهوال وتأثير الحاجة ، السبب المباشر في ازالة الشكوك وابادة سوء النية وتحطيم العراقيل وإلانة المعارضات وجمع الكلمة وضم الخلفاء في شكل اتحاد دائم . ولقد كانت الحرب السبب أيضاً في الجمع بين هيئتين إحداهما الظافرة التي امتصت المقهورة وضمتها في وحدة سامية وفرضت عليها في بادىء الأمر ارادتها ثم انتهى بها الحال الى قبول الامتيازات المشتركة بين الطرفين . ان العلاقات الثابتة القوية تضم بين جميع الأجزاء المتنافرة طبقاً لنظام ثابت دائم . ومنذ تلك اللحظة تتحدد جميع التعديلات والتغييرات في هذه الأجزاء . والحرب أيضاً هي التي تخلق المجتمع الدائم وتحافظ على كيانه ووجوده في حالته الضيقة المحدودة المتكمشة بأقصى ما فيها من عوامل الضغط والقوة . ان اشتراك عاملين في مناوأة عامل آخر يعد مبدأ للاتحاد وعنصراً رئيسيًّا فعالاً من عناصر الوحدة .

ان المجتمعات الصغيرة في العصور القديمة ، تلك المجتمعات التي كانت تعيش في حروب مستمرة وغزوات مطردة بغير هوادة ولا هنقة وفي أوقات كان الأسير لا ينجو من شر الموت الا ليقع بين براثن الرق والعبودية ، تلك المجتمعات كانت غريبة عن بعضها تتراشق عدواً وتتحين الفرص للبطش والفتك .

كانت المدينة في تلك العصور عبارة عن معسكر قائم وكان دستور الأسر والمدن القديمة كما أصلناه — شاقًّا وحشيًّا بفعل الضرورات الخارجية . على أنها قد تدانت من بعضها

وامتزجت في هيئة ثابتة . وأصبح السياج المسلح المحيط بها عديم الفائدة الا فيما يتعلق بمحيط الجماعة . أما في الداخل فان المساحات الملتصقة ببعضها فانها تفقد من صلابتها وخشونتها ، وتصبح قابلة للرشح كما هي الحال في المستديرات الحيوانية الملتصقة الأعضاء ، وتسقط الحواجز ويمتزج ما بداخلها : لن تكون كالخلايا الجوفاء المتلاصقة ولكنها تصبح بمثابة قطعة واحدة من نسيج متواصل تسري في جميع أجزائه حياة واحدة .

وتتحول قوة المقاومة نحو ما يحيط بالجماعة الجديدة من الخارج ، ويجتمع المقاتلون عند الحدود تحت امرة القائد المختار . ويعين في الداخل مجلس للتشاور والتقنين وقضاة لتفسير الشرائع وتطبيقها . وتفقد العلاقات بين القبائل أو الأسر صفتها الدولية وتتحول الى علاقات قانون خاص . ويوضع نظام الأمن في الداخل كما يوضع نظام الدفاع في الخارج . وهكذا ـ بفضل السلم الذي ينظم ويحتفظ به ـ يطمئن الأفراد الى المستقبل ويرتاحون الى شرف المعاملات فيتقاضون الأعمال في المدينة ويستخدمون لأذواقهم أو لكفاءاتهم . فيقدم الرعاة والمزارعون لحوم الأغنام وحنطة الأرض ، ويغزل العمال الصوف أو يصنعون الآلات اللازمة للزراعة وأسلحة القتال . ويضع التجار بضائعهم في متناول المستهلكين .

على ان هذا التخصيص في الواقع لا يعد تحقيقاً لخطة مرسومة ، أو لارادة مدروسة . فالرجال مدفوعون ، ضد رغبتهم وبغير علمهم ، نحو اختيار العمل الذي تتوفر فيه مع الوقت كفاءة كل منهم ويميزه عن غيره . ان التخصص شرط المحافظة على التوازن والسلم . فهو يحوّل الأعداء من الخصومة إلى التعامل مع بعضهم بتحويل تيار نشاطهم . وفي سبيل نجاح أعضاء المجتمع وازدهار أعمالهم وتخفيف حدة المنافسات بين أرباب المهن يحصر أعضاء المجتمع نشاطهم في دائرة محدودة ويوجهون هذا النشاط في تحسين الانتاج ، إن الظروف الخارجية والميول الطبيعية تحدد معنى ذلك التخصص . وقد لاحظ الرجال — مع توالي الأيام — عظم الشقة التي قطعوها على الرغم منهم ، وتحققوا انهم يستطيعون — بطريق البدل — اشباع غاياتهم وارضاء كل رغباتهم فسارعوا ميولهم ووقفوا جهودهم على الصناعات أو الفنون فبرعوا فيها وازدادت قوة الجماعات بتقسيم العمل الذي يقرر لكل الأفراد المكان اللائق ويسمح له أيضاً بتحسين حالته بموالاة مهنته ومباشرتها . وهكذا يبدو التضامن الذي يجمع بين

أعضاء الجماعة ويتجلى أمام أنظار الجميع. يشعرون باستطاعة الشخص التخلي عن البعض الآخر، ويتمتعون بملء حريتهم واستقلالهم، وينظرون إلى الانضواء تحت لواء المجتمع الذي يعيشون في كنفه ولا يستطيعون تجنبه دون أن يهلكوا.

ثم ان هذا التقسيم للعمل لا يكون ميسوراً إلاّ بين أعضاء مجتمع واحد، ولا بد أن يكون هذا المجتمع مؤسساً على عقائد مشتركة وقائماً على مشاعر متحدة متضامنة ليستطيع أن يقاوم الضغط الخارجي. «إن المنافسة وحدها لا تستطيع إلاّ أن تزيد الشقة وتباعد بين الأفراد المستقلين إذا اتسع المجال لهؤلاء الأفراد ليتجنبوا بعضهم ويتباعدوا». ان النزاع لا يمكن أن يُحل بغير عامل فعّال يؤدي إلى التعاون، فهو يقيم العراقيل ويزيد في عنت المتنازعين ويضاعف في اختلافاتهم ويحفر بينهم هوة عميقة من الحقد يتعذر سدها. فاذا كان تقسيم العمل يجمع في نفس الوقت الذي يعرف فيه، واذا كان يقرب في نفس الوقت الذي يميز فيه، فليس ذلك إلاّ لأن الاحتكاك يجب أن يظل قائماً بضروريات الحياة المشتركة كما يجب أن يظل الرابط الاجتماعي الذي كان موجوداً من قبل.

وهذا التضامن الذي يزداد يوماً بعد يوم بتقسيم العمل تنسيقاً مطرداً والذي يميز دائماً بين القائمين بالأعمال بتمييز تلك الأعمال بالذات، هذا التضامن هو القانون الأساسي للمجتمعات القائمة. وهو الذي يحول الحق الخاص والحق العام، أي حق الفرد وحق الجماعة. ان نظام الأسرة يقل عتواً بزوال الحروب الداخلية: ان سلطة الأب المطلقة محدودة بالعرف والقانون، ومصالح البنات والنساء معترف بها ومصانة. أما حق الابن البكر فانها تتضاءل ثم تتلاشى حتى تزول. ففي روما أستعيض عن منتديات القبائل بمنتديات الجماعة. وفي نهاية العصر المتوسط تلاشت مقاطعات الاقطاعيات وفتحت أبوابها لمن يشاء أن يلجأ إليها أو يقصدها. وسهلت المواصلات بينها وبين بعضها وزالت الحواجز السياسية، وضعفت موانع الضرائب، واختلط السكان ببعضهم وعمت المدن وامتازت على القرى والمزارع بازدياد الحركة فيها وتبادل الأفكار والآراء: وتخصصت تلك المدن فأضحت مدناً تجارية أو جامعية أو حصوناً لحماية الحدود وصيانتها أو أوساطاً صناعية أو موانئ ملاحية وبحرية تبعاً للظروف الطبيعية أو التاريخية، حتى القرى فقد تقاسمت الأعمال الشائعة في جميع انحاء

المدن تبعاً لملاءمة أجوائها أو مكانة مرافئها أو سواحلها أو أنهارها أو أحلاق سكانها . واستعدادهم الشخصي . وفي ذات الوقت يتطور الضمير الوطني والشعور والرغبة في إنشاء وحدة أخلاقية بارزة ثابتة ، وتأبى العناصر المتجانسة المتساوية أن تعيش في مزيتها بعد أن كانت راضية بذلك العيش قانعة بتبادل المعونة . ولا تلبث أن تجاري التيار المحيط بها فتمتزج وتتعاون .

ولا يلبث التجانس والفوارق التكميلية التي كانت تربطها أن يجعل منها وحدة قوية متماسكة يتعذر فصم عراها . وهنا يتجلى الشعور بالذات الى أعظم درجة من التناسق والانتظام . ويتمالك المجموع البشري نفسه بعد إذ كان متباينا متفرقاً . ويدرك ماهيته ومكانته على الرغم من تجديد أعضائه وأفراده . وفي نفس الوقت تصبح الدولة كما قال رينان : روحاً ومبدأ نفسانيًا بقدر ما هي مجتمع من الرجال ووحدة جغرافية .

فتقسيم العمل إذن ، يُعد من أهم وأقوى عوامل تكوين الشخصيات . وتبادل التناسب والتطبيق بين الأعضاء لا يترك مجالاً للأوهام المزعجة . فكل جهاز عضوي يعتبر جهازاً مغلقاً فلا يقبل بغير مقاومة تسرب العناصر الغريبة إليه . والتوازن في علاقات الخلايا أو الأفراد يختل بدخول عامل خارجي ويؤدي الى انهيار مجموعة النظم الدفاعية التي ترمي ، بمساعدة القوات المتحدة المتحالفة ، الى إنهاء هذا الدخيل وإعادة النظام السابق الى ما كان عليه . فاذا تكفل هذا العمل بالنجاح — وهذا ما يغلب في كثير من الأحوال لأن قوة الجهاز العضوي التي ازدادت بالتعاون والتحالف تتغلب على أعدائها المنشقين على أنفسهم — فان التوازن يحافظ على كيانه ووجوده . ولو فرض أن العنصر الغريب قد يتمكن من التسرب والاستقرار في مكان من الجسم الحي ، فإنه لا يُسمح ببقائه إلاّ بحدوث تغيير يلائم الوسط الجديد الذي دخل فيه . وهذا الوسط يتأثر بدوره ويعتريه تغيير مناسب للوضع الجديد ولكن في مدى محدود إذا كان وجود الدخيل غير متنافر مع حياة مجموع العناصر المتلاصقة وغير عامل على إزالتها . فاذا تمكن من الاحتفاظ بحياته في وسطها فان الاستقرار يكاد يكون مضموناً في داخل الجهاز العضوي المحصّن الممتاز .

وما دامت لكل مجموعة عنصرية حياتها الخاصة ، فانها تستمين بجميع أعضائها التي تظل

واضحة جليّة لأن نشاطها ضروري لكيانها ولكن اذا اشتركت عناصر جديدة في الاعضاء المركزية تنمو على حساب الاعضاء المحلية التي يضعف نشاطها . وتلتقي جميع هذه الاعضاء ببعضها وتندمج خلال الفتحات الخالية التي تضعف مقاومتها . وهكذا لا تؤثر كل وحدة على جاراتها ولا تحدث فيها تأثيراً اجماليًّا ناتجاً عن اتحاد تلك القوات مجتمعة ولكنها تحدث فيها تأثيراً متقطعاً موزّعاً يتجلى بفعل العلاقات المباشرة التي تقوم بين هذه الاعضاء وبين أعضاء الوحدات التابعة لنفس القياس . إن العناصر — اذا كانت من طبيعة واحدة — تتقارب وتتجانس مدفوعة بمصالح مشتركة متشابهة تتعارض مع مصالح الاعضاء القريبة من مجموعتها الاصلية . إن وحدة المجموعة الاصلية تتفكك ، ونشاطها الموزّع المقسم يندمج في مجموعة أمتن تركيباً وأكثر مرونة وغير مركبة من أجزاء صلبة تكاد تكون مرتبطة ببعضها . وهكذا يكون الفرد بالنسبة لاحتكاك الانفعالات التابعة للمشاعر مختلفة الحلقات . فهو يوجد عند نقطة التقاء الحركات التي تخترق العناصر المتجانسة في طبيعتها والتي تنتشر بين العناصر التي تؤلف عضواً وحلاً وتنشيء منطقة واحدة . وهكذا فان خلية واحدة في جهاز عضوي حيواني يمكن أن تكون تابعة للجهاز العصبي وللجهاز الهضمي وللجزء المتوسط من الجسم في وقت واحد .

وإذن فالفعل الخارجي أو الداخلي لا ينتقل بشكل حركات محتكة ويتناسق بانتظام خلال المادة : فهناك خطوط انتقال تحفر على شكل شرايين دموية ومائية أو على هيئة ألياف عصبية تملأ جميع الاجواء وتنقل الفعل الكيميائي أو الموجة المثيرة الى العوامل المؤثرة المشتركة بسرعة وانتظام . وهكذا يتم التنسيق والتنظيم بأقل ما يمكن من التكاليف وبدون أي خلل أو اضطراب .

***

إن تقسيم العمل يعد مبدأ لتطور الفرد كما هو مبدأ لانتظام المجتمع . إن تكوين الشخصية البطيء — مع ما فيه من آثار رجعية — يتجلى منذ أقدم عصور التاريخ . إن الرجال ينفصلون تدريجيًّا عن الجماعة التي كانوا مندمجين بها في الأصل سواء أكانت هذه الجماعة عائلية أو سياسية . والمدنية ليست سوى حلقة من الجهود الشاقة نحو استقلال

السكان البشري . ففي البدء كان الفرد مستعبداً من الجماعة التي يتبعها ويقاطرها مورثها المادية وأفكارها وشعورها : تلك الجماعة التي يشعر بضغطها عليه وتأثيرها الخارجي والداخلي على كيانه وعقليته . كان لا يملك شيئاً لذاته بل كان لا يملك نفسه . وكان تملك الأشياء على الشيوع ، واختيار المهنة وممارستها معلوماً ثم تحدد شيئاً فشيئاً بالاحتمال . ولم تك للرجل حتى حرية اختيار شريكة حياته ومعاشرتها طبقاً لميولهما وذوقهما وبيئة أولادهما . فقد كانت السلطة تتدخل في صميم الأسرة وتفرض الزوجة وتحدد تربية الولد وأحياناً كانت تنزعه من أبويه . ولم تكن السلطة تنفذ بواسطة زعيم يختاره الجمهور فقد كانت جمعية الشعب صاحبة الرأي الأعلى والأخير .

كانت المسئولية المشتركة تثقل على العشيرة بغير تمييز حتى لقد كان يمكن معاقبة أي عضو فيها على أعمال يكون قد ارتكبها غيره من أفراد العشيرة . ولم تكن الاهانة تعتبر من الأمور الشخصية لأن العشيرة بأكملها كانت تعاني نتائجها وجميع أفرادها يساؤون منها في شعورهم كما يساؤون في أموالهم المشتركة بين الجميع . وكانت الاساءة المادية الناجمة عن السرقة أو النهب ، والضرر الخاص المترتب على الجريمة التي — لو لم تعاقب وتكرر — تعتبر تهديداً لكل فرد يتناول الجميع على حد سواء . وعكس ذلك فان المبين لا يعمل على انفراد : فاما انه يرتكب الفعلة التي تعزى اليه خلال غزوة حربية أو انه يرتكبها في مصلحة عشيرته وإذن فجميع رجال العشيرة يعدون شركاءه أو أنصاره . ويظل مرتكب الضرر مجهولاً من خصومه . على أنه بعيد عن سلطة تشريع الجماعة التي أمره اليها ولا تستطيع هذه الجماعة أن ترجع الا على العشيرة المعادية لها فتنتقم منها . ان تناسق الجماعات الأولى متين الى حد يخال انها ممزجة ببعضها تعيش من موارد واحدة وتحيا لغرض واحد وتدب فيها روح واحدة تهب عند أول احتكاك بالمؤثرات الخارجية وتتأثر بأجمها من الحوادث الداخلية .

على أن نمو المجتمع رويداً رويداً واتساع نطاقه اتساعاً طبيعياً مطرداً بزيادة عدد أعضائه واعتداد حركاتهم وتنقلاتهم لا بد أن يضاعف الاحتكاكات مع تخفيض مداها وتأثيرها لأن العلاقات ، إذا طال مداها ، ضعف مفعولها وقلت ميزتها وامتيازاتها . ان تقسيم العمل

يحدث تفاوتاً ، وهذا التفاوت يزداد باختلاف الأوساط التي يخضع الرجال لتأثيرها . ففي عشيرة كبيرة تملأ السهل والجبل وشاطىء البحر يوجد فيها صيادو السمك ، والمزارعون والصيادون . وجميع هؤلاء لا يلبثون أن يمتازوا بعادات وأخلاق خاصة . عندئذ تنشأ طبقات أخرى في وسط العشيرة أو المدينة . ثم تتألف بين الرجال جمعيات بدافع من ميولهم وطبائعهم . وهكذا يمكن أن ينتمي رجل واحد الى جمعيات مختلفة فتنتفع كل واحدة منها بشطر من نشاطه . فاذا ما وقف عند مفترق الطرق فانه يصبح عند ملتقى نواحي التأثير المتشعبة الأغراض فتكون له شخصية غريبة بينة عن شخصية الوحدات المجاورة ، متباينة عن استعدادها . ان الميل النظري الى تصوير الوجهة والتفنن في خلق تقاطيعه البارزة المميزة ، والرغبة في اثبات « ما لن تقع عليه العين مرتين » ليس في الواقع الا ثمرة من ثمار المدنية وان تأخر نضوجها . فما أبعد البون بين الجمال المؤثر في تمثال من صنع فيدياس وبين الشذوذ المؤثر الذي يحاول أن يدركه مصورو الصور الحديثة ويسعون اليه .

وهكذا يتعلق الرجل بتأثير الاضطراب الاجتماعي في صدر ذلك المجتمع المتباين . فاستقلاله يدفعه إلى السعي وراء الظهور والتعرف على الجميع والحصول على ضمان الحريات اللازمة لكيانه بضمان المسئوليات . وإذ ذاك تتلاشى المبادىء الشيوعية وتمالئها من الأسرة ويعترف التشريع بحق الوصاية بموافقة الجماعة وتحت تأثير الارادة ثم يقرر حرية التعاقد وحمايتها .

وعندما يتمكن الرجل من إلقاء الأحمال التي تثقل كاهله ويرزح تحتها ، في وسط القبيلة ، يتسنى له أن يتمتع بقسط وافر من الحرية . ولا بد أن تسري العدوى إلى أمثاله وتؤثر فيهم ، فينشأ عن تصرف الرجل هنا حريته نوعان من النتائج : أحدهما لا يعود مفعوله إلا عليه ويتوقف نجاحه أو فشله على جهوده فهو وحده يتحمل مسؤولية تدخله وأعماله ، والجهود التي بذلها إما أن تخدمه أو تسيء اليه . فالنتائج سواء أكانت حسنة أم سيئة تحد من نشاطه بعقوبة أو توماتيكية لا تقبل نقضاً ولا ابراماً . ولكن قد يكون لأعماله أيضاً تأثير رجعي على بقية الأفراد . فمن الذي يتحمل الأضرار المسببة عنها في هذه الحالة ؟ لا شك في أن العاقبة تقع على عاتق من تجاوز حدود القواعد المقررة بنواميسه تنظيم العلاقات

بين الرجال وادارتها وهكذا فإن معرفة المسؤولية وتحديدها — وهي إحدى نتائج الحرية ومن أهم عواملها — ترتكز على فكرة الخطأ والعمل الذي يرتكب بمحض الارادة والحرية وليس على العمل الوحشي .

كانت المسؤولية الجنائية ممتزجة بالمسؤولية المدنية في العصور الاولى ولا تتميز إحداها عن الاخرى إلا بعد أن حلّ القصاص الشخصي أو الفردي محل القمع العام . وفي العصور المتوسطة فرضت العادات النظام النقدي الاجمالي الذي يضمن إرجاء المجتمع الإنساني بالانتصاص من المجرم وتعويض الضرر العائد على الفرد في وقت واحد . ثمّ تطورت كل حالة على انفراد مع الوقت ، فأصبح في الامكان تقرير التعويض المالي مستقلاً عن أية مخالفة للقانون وتقديره بالنسبة للضرر الواقع . منذ ذلك الحين ازدادت عوامل الفصل بين نوعي المسؤولية وتحددت الجريمة وشرحت شرحاً وافياً ، فكان موضوع القصد والاصرار مثيراً للشكوك في مدى الجرم مما أدى إلى نقض عدد الاحكام . وإلى جانب ذلك فإن وطأة القمع خفت وتلطفت . وعلى نقيض ذلك فإن تطبيق التعويض المدني ، بالنظر الى تعدد العلاقات الاجتماعية وتقدم العناصر ورقيها ، قد ازداد ، وإن تعقد تحديده وصعب ادراكه . ولذلك فإن التشريع والفقه يكتفيان — في حالة الجرم المدني — بالخطأ المحسوس والدليل الملموس . وفي النهاية تخطى القانون مرحلة جديدة وتغاضى عن الاستعداد بأي خطأ واكتفى بالتمسك بفكرة المجازفة وأعتبر كل مالك أو صانع مسؤولاً عن نتائج الأشياء إذا كان هذا المالك أو ذلك الصانع سينتفع — عند الحاجة — بالميزات والفوائد التي تترتب على الحالة أو الحادث الذي تسبب عنه الضرر . ان فكرة الخطأ وفكرة المجازفة — اذ تساعدان على ايجاد فردية العقوبة وفردية التعويض — تعضدان على ايجاد استقلال الإنسان مع المحافظة على التضامن الاجتماعي .

* * *

هناك اتجاهان متعارضان يتنازعان العناصر البسيطة في الكائنات كثيرة الخلايا أو الأفراد الذين يؤلفون المجتمعات البشرية : أحدهما يحملها على الحرية وتنمية نشاطها والاتجاه الملائم لمصالحها الشخصية كل الملائمة ، والآخر يرجع بها الى البحث عن المصلحة العامة وهي

الشرط الأساسي لإرضاء حاجاتها الخاصة . الأول قوة دافعة إذا هي عملت بمفردها ترتب عنها تشتيت الذرات الاجتماعية . والثاني قوة جاذبة إذا هي وجدت ما يوازنها فإنها تنتزع ـ بقوة جاذبيتها ـ كل حرية وكل فردية في العناصر التي يتألف منها الجسم الاجتماعي . والنتيجة في الحالتين هي الموت سواء بالانحلال أو بالضغط . ويمكن ايجاد التوازن بين هذين الاتجاهين ، ذلك التوازن الذي يسمح بالعيش والبقاء ، بعمل اتفاق بينهما . تلك هي مسألة حقوق الرجل .

وإننا لا نظن بأنه يمكن حلّ هذه المسألة باشتقاق الحقوق الفردية من حقوق المجتمع أو بالعكس ، ولا باستناد قيمة مجردة لهذه الحقوق إن حظ ذلك الزمام الذي يفصل بينها لا يعتبر حداً ثابتاً محدوداً . فهو مجرد امتداد مؤقت للعقار الذي ترك لها ، عملاً بمقتضيات الزمن والمكان ونوع النظام . فإذا كانت الشعوب التي تقدمتنا قد هجرت باحترام كرامة الفرد بمثل ما نشعر بها نحن اليوم فلا شك في أنه كان من المتعذر عليها أن تعيش وتحيا .

كيف يحدث هذا التحديد ؟ وما هو الخط الذي يلاحظ عنده التقاء الاتجاهات المتعارضة واتفاقها ؟ إنه لكي يسهل فهم ذلك يجب أن نذكر الطريقة التي تم بها اتحاد الأجزاء المتجانسة التي تحولت ـ إثر تخصصها ـ إلى أعضاء منفصلة مميزة . ان كل جزء من هذه الأجزاء يحمل إلى الجماعة قوة تندمج في التوازن مع قوة بقية الأعضاء ، ولكنها بدلاً من أن تستقل بذاتها فإنها تنتج اتجاهاً واحداً وتتعاون مع بعضها . على ان هذا لا يمنع من أنها قد تسيء إلى بعضها ولو عن طريق رفضها القيام بمهمتها . إذ الأعضاء ، سواء بتقاربها أو بطبيعة الوظائف التي تؤديها ، تؤلف جماعات جزئية تمتاز بتضامنها لأنه أمتن من التضامن الذي يجمع بين مجموع الخلايا . فهذه الأعضاء ، أو مجموعة الأعضاء ، تطالب ـ عند توزيع الأرباح والأعمال ـ بجزء يتناسب مع الحيز الذي تشغله أو مع أهميتها . ولما كانت مضطرة إلى الاشتراك في المعيشة فإنها تصل إلى نوع من التوازن حتمية التقاء في المستقبل العاجل . وهكذا يلاحظ ، عند البحث في نظام الكائنات ، وجود توازن بين مختلف أجزاء الجسم . إن أغلب الكائنات الحيّة تتمتع ببنية متجانسة والتي تتمتع منها بنعمة الحركة فإنها تتنازل بغير ما جهد كبير ، بفضل توازنها الذي يكفي أن يدلها لتعديل سيرها في كل آن ، بما في ذلك

بأكمله إلى الحركة.

وهكذا الحال في النظام الاجتماعي. إن تمييز الوظائف وانفصالها يعقبه مباشرة فصل السلطات ليساعد على ضمان سير المعاهد بطريقة أنسب وأجدى أكثر من مساعدته على تخفيض نسبة التنافس باختيار أساليب مختلفة من النشاط. ان الميكانيكا علمتنا أنه اذا استقلت قوتان وتوازنتا فانهما لا تفنيان بعضهما ولكنهما تحدثان تأثيراً آخر: التشويه والضغط... في المجتمعات القديمة، وفي القبائل الاسترالية مثلاً، نلاحظ تقسيماً في أولى المجموعات، إلى جوئين يقوم بينهما نوع من النزاع المنظم ينتهي بالتعاون. فهذان المعسكران اللذان يتنازعهما الاتحاد والتنافس ليسا إلا مثلاً خشناً لتوازن القوات الذي يسبق تخصيص الوظائف. إن النزاع بين بعض التشريعات الرومانية، كالقنصلية، ونظام مجلسي التشريع وممارسته ليست إلا تطبيقاً لنفس المبدأ.

إن الفصل بين السلطات الضامنة للحرية وتوازنها، قد تألف في المجتمعات المتمدينة ووجد بطبيعته قبل أن يورد مونتسكيو نظرية تلك السلطات بعد اكتشافها في نظام الملكية الدستورية الانجليزية. والحقيقة أنها كانت موجودة دائماً. فلما أن الرئيس كان يستمد سلطته من موافقة أتباعه بعد أن تم تنظيمهم الى مجتمع حافل بالمعاهد القديمة التي يمكن الاعتماد عليها لمقاومة الاضطهاد، واما عند تنفيذ أحكام السيادة والسلطة المطلقة، إذا هو أصبح مستبداً، أي انه اذا — وهذا ما يقع في الغالب — تجاهل قوات اتباعه وأنكرها فإنه لا ينظمها ويوازن بينها بلباقة ودهاء فيستطيع أن يحكم مستعيناً بقوة البعض لمقاومة البعض الآخر، فيحدث إذ ذاك حركة ثورية تحتم وضع حد للسلطات الملكية بمنح الضمانات المستديمة التي تكفل بقاءها وخير تلك الضمانات وأصلبها هو تجزئة السلطة. وفي كلتا الحالتين تنضم المقاومة وتلتف حول المراكز الثانوية المحلية أو حول الأعضاء الذين يتقاسمون السلطات بتوزيع الوظائف وتقسيمها على أنفسهم. وهي تقاوم نفوذ الملكية المطلق وتحدد، بشكل دستور، نصيب الحريات المحلية والنقابية والفردية والوسائل التي تضمن احترامها.

إنه لمن الصواب أن يطلق اسم «فصل السلطات» على تقسيم الوظائف التشريعية والتنفيذية والقضائية التي كانت في بادىء العصور محصورة في يد واحدة. عندما تمكن

الزعيم من جمع السلطة التي كانت قبل ذلك موزعة بفضل الاقطاعيين أو الرعايا الثائرين ، وتوحيدها وتركيزها بين يديه ، لم يعد لسلطته حد تقف عنده وأضى من الصعب أن يقاوم الاغراء الذي يدفع به إلى الظلم والاستبداد : خصوصاً وأن حاشيته كانت تدفعه الى ارتكاب هذا الشطط لأنه يعود بالخير العميم عليها وعلى البلاط . عندئذ يثور ممثلو الجموع المحكومة ويطالبون — سواء بالشدة أو برفض تقديم الأموال — بالاشتراك المباشر في الادارة الحكومية وأداة السلطة . ومع ذلك فإن المجلس المؤلف من المندوبين لا يستطيع — بالنسبة لعدد أعضائه — التدخل في تفاصيل الأعمال التي تتطلب خبرة فنية لدراسة المسائل المشتركة وتوحيد القرارات واستمرار تنفيذ الأغراض التي وضعت لها تلك المسائل . وهكذا فالمجالس لا تستطيع إلا وضع القواعد العامة ، وعلى الحكومة المؤلفة من عدد قليل من الرجال الاخصائيين تحت سلطة واحدة ، أن تتولى اعداد المداولات وتنفيذ المبادىء التي تتخذ وتقرر . وبذلك يتم تقسيم الوظائف التي تجعل من المجلس الاستشاري المؤلف من عناصر الشعب ، عضواً تشريعياً ، ويجعل من الحكومة ، وهي أقدم منه ، عضواً تنفيذياً ليس إلا . ولكن لكي تنزع من الحكومة سلطة التدخل في تطبيق جميع القوانين ووسيلة معارضة الوقائع ، فان المجلس التشريعي يجتهد في توزيع القضاء التنفيذي بإيجاد القضاء المستقل الذي تتألف منه السلطة القضائية .

ومما يدل على أن تقسيم الوظائف لا يمثل الفكرة الرئيسية في توزيع الاختصاصات هو — قبل كل شيء — ان وجود التطبيق قد سبق وجود النظرية كما أن الفصل بينهما لم يتم تماماً وكلية . ان المجالس التشريعية تراقب السلطة التنفيذية وتلك السلطة في العهود البرلمانية ليست سوى إحدى مشتقاتها . فهذه المجالس — في الحالات الهامة — تشترك في الادارة التنفيذية باتخاذ قرارات ليست لها من القوانين إلا شكلها : كنقل الملكية العامة ، والموافقة على المعاهدات وغير ذلك . كما أنها تقوم مقام محكمة العدل العليا . والسلطة التنفيذية تشترك من جانبها في الأداة التشريعية أولاً بما لها من حق الاطلاع على الاسرار والتصديق ثم بالاشتراك المتواصل في المداولات — وفي النهاية وهو أهم الأسباب — بما لها من حق مباشرة السلطة القانونية التي تؤلف — على الرغم من تمييز المشرعين — سلطة تشريعية هي ، وان كانت

تابعة لغيرها ، إلا أنها سلطة واسعة بين أيدي رئيس الدولة أو المحافظ أو العمدة .

ان التنظيم التنفيذي يحتل في النهاية مكانته في النظام القضائي بما له من حق اتخاذ اجراءات التنفيذ التي يكاد يحتفظ بها كلها بعضده ، باشتراك ممثلي النيابة العمومية في مداولات المحاكم وتنفيذ أحكامها . وإلى جانب ذلك فانه يحتفظ لنفسه بحق رفع الدعاوي أمام المحاكم الادارية والحكم في منازعات تتعلق به مباشرة .

أما السلطة القضائية فعلى الرغم من الاحتياطات الدقيقة التي تتخذ ، فإن تأثيرها يبدو خارج دائرته بافادة تشريع يتألف منه نوع من التقنين المصطلح عليه .

وليس هذا النفوذ نتيجة مباشرة حتمية لتناسق الوظائف وتنظيمها ، فهو أيضاً دليل على ان فصل السلطات ليس فقط من إيجاد تخصيص الأعضاء في الأعمال التي تتفق مع مؤهلاتهم وكفاءاتهم الخاصة . وهو يفسر كيف أن الحكومات السياسية ، مع عدم أخذها عمداً بشعار اللامركزية ، تفضل مع ذلك مثل هذا النفوذ على سلطة الحكم المطلقة . وذلك لأن الحكومات تريد ، قبل كل شيء ، وبفضل التوازن في الحرية والمصلحة ، أن تنال قسطها من القوات المتنافسة ، ولكن متحدة ، في سبيل الحياة المشتركة والفوائد التي تترتب عنها . لقد أدى بكوان تلك الحقيقة العميقة الى عجز النقد الموجه ضد نظام الدول ممن حاولوا أن يقارنوا بها نظام الادارة في المشروعات الخاصة . إن المدرسة الحديثة التي تمسكت بشرح المذهب الاداري قد ضلت عندما أرادت أن تعد استنتاجاتها التي استخلصتها من المعاهد الصناعية الى المصالح العامة . فهناك فرق أساسي يجب بينهما . فالمعاهد الصناعية مؤسسات سورية نظمها مؤسسوها ، وهم الرأسماليون ، طبقاً لرغبتهم وطوعاً لمصلحتهم الخاصة . فالمديرون وأعضاء مجالس الادارة والمهندسون والعمال الذين يتعاونون على نجاح المشروع ليسوا مشتركين ولكنهم موظفون وافق المساهمون على أن يشتركوا في الربح ولكن بنسبة ما يرى هؤلاء المساهمون أن ذلك لا يتنافى ولا يتعارض مع مصالحهم الشخصية . كذلك ليست لهم أية سلطة خاصة ذاتية ولكنها سلطة منتدبة تفرض عليهم من الخارج فيمارسون بها . أما مسألة نظم الدولة فغير ذلك . فالسلطة ليست خارجية ولكن داخلية . فهي مخولة من جميع أعضاء المجتمع الذين يمكنهم أيضاً أن يطمعوا ويطمحوا الى الاشتراك في الادارة

والمصالح . وهم يحاولون التوفيق بين مصالح سلطة مركزية قوية تعمل ـ بتهذيب الجهود ـ على زيادة الانتاج والحصول على الضمانات اللازمة ضد عبث السلطة . وتلك لا يسهل الحصول عليها الا بتذليل العقبات التي تعترض حسن سير الادارة . فاذا خيروا بين المصالح المادية والحرية فانهم يختارون الحرية ولو لم تضمن لهم الا النذر القليل من الراحة . اذ لو ان المشروعات الصناعية لا تنال من الرجل الا عمله ولمدة محدودة ، فان المجتمع يستولي على الرجل بأكمله وكليته من أول يوم الى آخر يوم من حياته . وهذا يدلل لنا على مبلغ سمو وراء ما يضمن تحريره من ربقة الاستبداد والظلم .

غير ان تلك الضمانات التي تتحقق بتوازن القوات المتنافسة ، تؤدي الى وقف حركة الجهاز بأكمله وشل جميع الأعضاء لو أن هذه القوات لم تستعمل في أعمال ومهام مختلفة تحرك بواسطتها وبفضل استمرار مزاولتها وكفاءة خاصة مميزة يستفيد منها باقي الجماعة . وتلك الحركة تحدد مكانة الكائن الاجتماعي . فالكتلة المتنافسة التي كان يتألف منها تتميز عن بعضها بالنسبة لوظائف الأجزاء التي تتخذ الشكل الذي يليق بدورها الخاص ويتناسب مع توازن المجموع ، وتتحد العلاقات بين الأعضاء والخلايا لتضمن توجيه وتوزيع الجهود والنتائج .

وهكذا فان المجتمعات البشرية تذوب بالنظر الى الشيء في ذاته . ونعني بهذا التعبير أنها لا تنتظم بذاتها بفعل ارادة داخلية أو ظاهرة باطنية . وانما هي أشكال وأوضاع للمادة الحية التي صاغتها الحوادث التاريخية والتأثيرات المحلية . ان النظام — كما في جميع الكائنات الحية — يستقيم في تخصيص الوظائف وتنسيقها ، وفي توازن القوات ، القوات الفردية بين بعضها أولاً ، ثم القوات الفردية بمعارضتها للقوات الاجتماعية .

* * *

السلطة العمومية والفرد . ها هما ذا قطبا المجتمع والعاملان الضروريان اللذان لا يمكن بأي حال اهمالهما أو إغفال أحدهما عند دراسة ميكانيكا الدولة . أعني أن مذهب الفردية غير كامل اذا أقام دعامة « الحق » على المزايا التي يحملها الرجل معه منذ مجيئه الى هذه الدنيا ، والتي تتعلق بطبيعة رجولته وتدعو الى احترام الجميع له . وتلك النظرية — التي تعتبر المساواة

بين جميع الرجال وكانت القواعد المطلقة مضمحلة لها وهي هي في جميع العصور وجميع البلاد — عرضة للنزاع باعتبار أن الرجل يولد من الحماقة وإنه لا يستطيع أن يعيش الا في مجتمع . إن الرجل الطبيعي الذي يأتي إلى الحياة مستقلاً ، هو ثمرة فرية أدبية . فهو في الحقيقة تابع لمن تقدموه ومن يحيطون به . من العقل وليد المدنية . والرجل الذي يولد باعتبار أنه يحمل عبقرية بني جنسه وعلومهم يُعدُّ من النتائج لا من المسببات . ومن ناحية أخرى فإن الوقائع تكذب نظرية المساواة تكذيباً قاطعاً كما أنها تثير جدلاً عنيفاً ساخراً حول وحدة التشريع .

والى جانب ذلك فإن مذهب الحق الاجتماعي ، الذي لا يرتكز إلا على التضامن ، يهمل النظرية الأخرى التي تقدمها الملاحظة . حقاً أن المجتمع حدث أولي والرجل لا يفهم إلا بواسطة علاقات التضامن . ولكن الفرد من جانبه حدث أولي أيضاً ولولا الفرد لما وجد المجتمع . فالقول بأنه ليس للرجل حقوق الا بمقدار ما له من الواجبات وبمقدار ما يكفيه لتأديتها لا يقصد منه سوى ازالة معالم الحق : ففي المجتمع الذي يعمل جميع أعضائه متضامنين تضامناً تاماً يكون الحق لغواً زائداً ما دام لا يعتبر سوى وسيلة للدفاع ضد الغير ويفقد الرجل كل شخصية ويصبح عثابة الآلة . إن هذا المذهب لا يجهل مصلحة الفرد فحسب ولكنه يجهل كيانه أيضاً لأن هذا الكيان يتلاشى في نظرة أمام كيان الجسم الاجتماعي . ان مثل هذا الزعم يخالف ما ينطق به البيان . وعلى الرغم من أن الأفراد — في بدء تكوين المجتمعات — يحملون كثيراً من عناصر الشبه الدقيق ، فاذا كانت حصة الروح الاجتماعية في الكائن البشري الأولي تتجاوز الروح الفردية وتتغلب عليها ، فإن هذا لا يمنع من أن للرجل فرديته المميزة : فإن نعومة مشاعره أو خشونتها وحدة ذكائه أو كساده ، ولين أخلاقه وحدتها لا بدَّ أن تميزه عن أبناء جنسه . إن استعداده الذي يتقلب طبقاً للظروف لهو أعظم من استعداد الخلايا التي تؤلف الكائن الحي . وهذا السبب هو أحد الأسباب القوية التي تجعل نظام المجتمع يختلف عن النظم الأخرى ، وتجعل علم الاجتماع يختلف عن علم تركب الأعضاء . إن الوحدات الحية التي تؤلف الحيوان شديدة الاحتكاك ببعضها بقدر ما هي متينة الارتباط مادياً ، بينما الوحدات التي تؤلف الجسم الاجتماعي تتمتع بحرية تامة

وهي متحركة وثابتة لأن تتبع عدة جماعات في وقت واحد . وانه لمن المغالاة ان ندعي أن الحق يرتكز على هذه القاعدة : عدم فعل شيء يؤثر في التضامن الاجتماعي وعمل كل ما يؤدي إلى تحقيق هذا التضامن وتنميته .

إذ أن حق المجتمع لا يشمل فقط عملية تنظيم المجموعة عن طريق أعضائها ولكنه يشمل كذلك فعل النشاط الخاص الذي يبديه الافراد في تعاونهم ، طوعاً أو كرهاً ، في سبيل المجتمعات . وهذا النشاط هو الأساس الذي تدور حوله حركات المجموع . وهو خاضع لنظام مقبول ومفروض في وقت واحد . اما انه مقبول فلأن الأفراد يعترفون بالضرورة العامة للخضوع — إلى حدما — لارادة المجموع ، وإلاّ لا يبقى أمامهم غير الهلاك في الانزواء والقطيعة . واما انه مفروض فلأنه عند تطبيق القاعدة المشتركة يحاول أعضاء الجماعة أن يتحرروا من كل ما يحد من حريتهم . إن القانون يحد من الحريات باسم المصلحة العامة ، ولكنه على الرغم من عجزه عن خنقها يقاسي القيود التي يفرضها بهيبة الواجب التي يتركها لكل منهم لتنفيذ أغراضه الخاصة . وعلى نقيض القانون الخارجي الذي يضع القوات المستقلة تجاه بعضها ، فان النظام الداخلي يطبق على تمرد الأفراد وضغطهم مادة المجتمع التي تتغلب عليها . أي — بعبارة أوضح — ان التوازن بين القوات الفردية والقوات الاجتماعية يحدث لمصلحة الأخيرة على الأقل لغاية اليوم الذي يتجزأ فيه الجسم الاجتماعي أو يتلاشى .

إن للأفراد حقوقاً يتفاوت مداها تبعاً لنوع المجتمع الذي ينتمون اليه أو تبعاً لتركيز السلطة واتساعها وتبعاً لعلاقات الأعضاء بعضهم ببعض : ان نصيب الحريات الشخصية واديم سلطة الاكراه والقسر خاضعان للتبديل والتغيير . كما إن عمل السلطة المعوضة والمقاومات الفردية يرسم حدود القانون ويحدد تركيب الدولة ، ذلك التركيب الذي تقرره القوانين الدستورية .

ان الدستور هو وضع حالة الأشياء في شكل يتضح من التوازن الحقيقي للقوات السياسية . وهو فوق ذلك مقبول لأنه أكثر مرانة وليونة منها ، ولأنه يمثل بشكل أوضح علاقة القوات الدائمة في الدولة . إن القانون الدستوري ، كالقانون الأساسي لاخلاق الأشخاص ،

لا يفلت من شروط القانون الخارجي الخاضع لشريعة التوازن بين القوات العنصرية . إن أحسن الدساتير — غير التي تقوم على العادات — هي التي تقتصر في أوضاعها على وصف التجارب السابقة وتطبيقها أو التي تقتصر على ذكر الشروط التي اتبعت في التحكيم بين اتجاهات طبقات الشعب المختلفة مع تقدير التطور الذي يحتمل أن يطرأ على هذا النظام .

* * *

إن من نتائج التوازن الكامل الثبات المطلق . ولكن الكائنات والمجتمعات لا تستطيع أن تستقر في حالة جمود وركود . فهناك عوامل داخلية تحركها . ثم إن التوازن الداخلي يتغير في كل لحظة تحت تأثير الأسباب الخارجية وضغطها . فالكائن الحي يتأثر بالوسط ، وتبادل المنتجات والأفكار ، والمنافسة الاقتصادية والسياسية ، والمنازعات المسلحة تحدث تقلبات وتغييرات في علاقات القوات الداخلية . إن تسيير العلاقات مع الخارج يحتم وجود إدارة خارجية ونظرة بعيدة ثاقبة .

فلا بد إذن — ما دام المجتمع يجب أن يعمل ليعيش — أن تتغلب إحدى السلطات أو إحدى الميول على غيرها . ففي كل حركة يحدث تصدع في التوازن . وقد طالما تفوقت السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية . أما في عهدنا ، وفي كثير من البلاد ، فان الدور قد انعكس وصار العضو الاستشاري هو صاحب السيادة بتأثيره ونفوذه .

ومن جهة أخرى . فان أفراد الأمة يجتهدون من جانبهم في الانتصار لأفكارهم ومصالحهم في تصريف الشئون العامة ولذلك فانهم يتولون إدارتها ، إن الانقسامات الطبيعية أو التاريخية أو المحالفات المؤقتة التي تقوم على المصلحة تؤلف في داخل البلد معارضة القوات التي تقف في وجه بعضها بجميع الطبقات الاجتماعية أو بعض عناصر الأمة ، كالاشراف والقضاة والعسكريين ورجال الدين والملاك والعمال وسكان المدن والقرى ، يريدون الحصول على جزء من السلطة . ان أضمن الأساليب التي اكتشفت لتنسيق الجهود المتعارضة جعل الكلمة الأخيرة للانتخابات العامة التي تستخلص ارادة الأغلبية لتفرضها على المجموع . تلك هي الوسيلة لتعداد القوات قبل بدء المعركة . إن في تحديد النتيجة المحتملة لنزاع خير ضمان لتلافي هذا النزاع بالذات ، ومساعدة الصلح لتسبق الحرب بدلاً من أن تعقبها . على انه يظل

دائماً للحزب المغلوب وسيلة أخرى وهي أن يرفض ذلك الخضوع والخنوع ويلجأ الى الثورة التي تسمح بقياس القوات بدلاً من عدّها . ولكن في بلد متضامنة ومنتظمة تنظيماً طبيعيًّا ، تستطيع الأغلبية ـ التي ترغب على الرغم من كل شيء في المحافظة على الوحدة القومية ـ أن تحافظ على الحالة في انتصارها وتأخذ برأي الأقلية . وتلك الأقلية من جانبها تسالم وتستسلم للقرار الصادر وتفضله على الانشقاق والقطيعة . ويحتفظ بالاتفاق بتبادل الامتيازات بين الفريقين وتكون الأقلية قد أشعرت غيرها بتأثيرها على تقرير المصير المتبع . هكذا يتفق الميل نحو الحرية الذي يجعل من أعضاء المجموعة معارضين إن لم يجعل منهم اعداء والميل نحو التقريب واتحاد الجهود تحت تأثير التضامن الذي يجذبهما ويجمع بينهما كلما افترقا بتأثير العواقب السيئة التي لا تلبث أن تحدث . ثم أن حاجة الاستقرار التي تطمئن بالتوازن ، وضرورة العمل التي تتطلب نفوذ أحد العناصر ، تهدأ حدتهما بتأثير احداهما على الأخرى وتعتدلان في حركة هادئة مطمئنة .

لقد طالما تساءلوا اذا كان الانتخاب حق فردي أو وظيفة اجتماعية . انه في الواقع يشمل الاثنين معاً . فهو حق باعتبار أن الفرد ، عند ما يضع قوته في خدمة المصلحة العامة ، يمكنه أن يلح في المطالبة بعدم اهمال صوته وأن يحترم رأيه . وهو أيضاً وظيفة ، بل هو أبسط الوظائف ، بمعنى أنه يحرر الميل العام وتوجيه الأفكار والأغراض . وغاية تلك الوظيفة هي تحديد التنسيق وبث روح الثقة بين الأجزاء والكل ، والتعبير عن الموافقة على السياسة المتبعة أو رفض البرامج المقترحة . بل أن حقيقة الغرض من تلك الوظيفة هو في تمثيل دور المحقق المدقق وأداء مهمة المراقب أكثر منه في كفاءة التنفيذ .

وإذن فالسلطة العامة ليست فقط من خصائص الأقوياء الذين يستولون عليها لحكم الضعفاء والفصل بين الحكام والمحكومين . فهي بالعكس اجتماع القوات الاجتماعية ، يشترك فيها الضعفاء حتى عند ما يتخذ عملهم شكل الجمود أو المقاومة العمياء لأن جميع أجزاء الجسم الاجتماعي تحدد بعضها بعضاً . ان في اسناد مظهر السيادة الوطنية الى تلك السلطة ليس إلا تعبيراً أجوف ليس في معناه السلبي إلا الاحتجاج على مبدأ السيادة الملكية للحق الالهي . فاذا وجهت السيادة الوطنية نحو الخارج فهي الحرية الدولية واذا وجهت نحو

الداخل فهي حرية الوطنيين . فلا ملك بغير رعية وليس في القول « ملك على نفسه » إلا نوع من أنواع التعبير والبيان اللغوي .

هنا يظهر التناقض الذي أشرنا إليه بين القوات التشريعية والقوات السياسية . إن القوات التشريعية هي قوات الحق الثابت والقواعد المقررة والمعمول بها منذ عهد بعيد والمتبعة بالغريزة . أما القوات السياسية فهي قوات الحق التي ما زالت في طور التأسيس وما زالت متأثرة بالنزاع الذي تولد عنه ذلك الحق وتظل متخلقة — بعض الوقت — بصبغة اجراءات القمع وتأثير الظروف التي فرضتها أغلبية الأقلية . وتلك الأقلية — مع تسليمها بهذه القوات — لا تفقد الأمل في تحسينها اذا ما تولت الحكم يوماً . إن القوانين — حتى بعد اصدارها وإقرارها — تظل عهداً طويلاً تحت الاختبار والمداولة قبل موافقة الشعب عليها أو قبل الغائها سواء بانتساخها أو نسيانها واهمالها ، اذا كانت لا تلائم النظام القائم للأشياء . وبعد تقلبات وتعديلات تنزع عنها صبغتها السياسية وتندمج بالكتلة التشريعية المحترمة . فاذا نظرنا الى أعماق الأشياء فان ذلك التناقض يميز صفة الاجراءات التشريعية بالنسبة الى درجة استمرارها . إن الأعمال التي تتكرر بسبب الظروف المستمرة تخلق عادة وتوجد نوعاً من الحاجة يؤدي ، مع طول الوقت ، إلى تعديل في النظام بتنمية وظيفة جديدة . فالأعمال التي يقل وقوعها ، لا تترك ، تحت تأثير الظروف المؤقتة العابرة ، أثراً وتضيع ذكراها . وهكذا الحال في الأعمال التشريعية : فالأولى تتحلى بصبغة قانونية والأخرى تحتفظ بمظهر سياسي .

* * *

ان مثل هذا التمييز يسمح لنا بتفسير الادارة والحكومة . ان عمل الحكومة يبدو دائماً مستحيل الحل في المذهب القانوني . فبعد إعادة جميع أركان نظرية القضاء في التشريع الكلي ، ونظرية القضاء في الحذف والالغاء اللذين يخولان حق اتهام أعمال السلطة ، الأول في موضوع تلك الأعمال ونتائجها ، والثاني في شكلها وصحتها ، يعترف القانون الاداري الفرنسوي بوجود أعمال تسمى أعمالاً حكومية ، مستترة عن التشريعات الأدارية بقدر ما هي مستترة عن المحاكم الاعتيادية . لقد أرادوا أن يحددوا صفاتها ويمكن تعذر بتاتاً

إيجاد علامة تمييز كافية للتمييز بين عمل الحكومة والعمل الاداري البحت. فكفوا عن البحث عن تلك العلامة في عنصر الشكل إذ أن كليهما صادر عن سلطة واحدة. وقد تعددت السلطات في أيامنا حتى لقد رأوا الاكتفاء باصدار قائمة عددية بأعمال الحكومة أعدها المشرعون، وتفسير تلك الأعمال باعتبارها نتائج لاتفاق حر في بين الحكومة ومجلس الدولة وتنازل هذا المجلس عن تناول تلك الأعمال بسلطته واختصاصه ووضعها خارج حيز التشريع على أن ينال في مقابل ذلك حق الوقوف على بقية المنازعات والالمام بها.

وهكذا توجد الآن في فرنسا قرارات من السلطة الحكومية لا يتناولها أي اجراء ويضطر الشعب الى الخضوع لها دون أن يستطيع الالتجاء الى القضاء لبتيه ظلها وتعسفها. ومن باب أول في الدول التي تقل حكوماتها ديموقراطية عن فرنسا. أما في انجلترا فاذا كانت مسئولية الموظفين منظمة تنظيماً دقيقاً فانه لا يمكن الطعن في مسؤولية الدولة أو المساس بها إذ «أن الملك لا يمكن أن يخطىء».

والحقيقة أننا لنشعر أنه يوجد بين الحكومة والادارة فرق في طبيعة كل منهما. ففي نظر المسيو إسمين: «الحكومة هي المحرك وموظفو الادارة هم أعضاء الانتقال ودواليب الآلة». وفي نظر المسيو هوريو: «الوظيفة الادارية ترتكز خاصة على أعداد ما تحتاج اليه الجماهير بتنظيم فروع خدمته ووظيفة الحكومة تقوم على تركيز سياسة الدولة». وفي نظر المسيو لدانتك: «ان دواليب النظام الاجتماعي التي تقوم بالوظائف البارزة تؤلف ما يسمونه الحكومة، أما الدواليب الأخرى التي دونها أهمية وأكثر منها تخصصاً فتؤلف الادارة والخدمات العامة».

ولكن كل هذه ليست دوراً أو مراسيم عامة. فالعمل الاداري والعمل الحكومي — كما قلنا — هما من عمل أعضاء واحدة، وهذه الاعضاء تارة تكون المحرك وتارة أخرى تكون دواليب التحويل: إن التفسير يظل غامضاً غموضاً عجيباً. أما العمل السياسي أو عمل التركيز السياسي فبأية إجراءات واضحة يمكن تنفيذه؟

إن التمييز بين الفكرتين المعبر عنهما بهاتين الكلمتين يظل غامضاً على الرغم من تبيته في الوقائع وفي تشريع المحاكم الادارية ومع ذلك فانه يخيل الينا أنه من الميسور ايراد تفسير

أوضح اذا شرعنا في تحليل العناصر الذين يشتركان في تأليف الدولة : توازن القوات الفردية أو الجزئية التي تؤلفه والتضامن الذي يتولد بين مختلف عناصر النظام الاهلي بتقسيم العمل. إن توازن القوات لا يخلو من التأثير على تقسيم العمل الاجتماعي إن السبب في اتجاه القوات اتجاهاً متناقضاً يرجع على الاخص إلى تعارضها تلافياً لاطراد اصدامها . انها تشق طريقها في الناحية التي تقل فيها المقاومة وهكذا تساق إلى أداء أعمال مختلفة .

ولكن قد يحدث أيضاً — بصفة استثنائية — إن تقسيم العمل لا يتم باحترام توازن القوات — وإذ ذاك لا تجد بعض هذه القوات دائماً ما يشغلها بفائدة . على ان هذا لا يمنعها من المطالبة بحصتها في الفوائد التي عادت على المجموع . وهكذا الحال عندما تؤثر بعض الظروف غير المنظورة على وظائف كانت إلى عهد ما هامة ضرورية فتصبح هذه الوظائف غير مجدية وزائدة عن الحاجة ويحرم الذين كانوا يؤدونها من وسائل معيشتهم ويجتازون أزمة مؤلمة . هذا ما حدث مثلاً عندما احتلت الآلة محل اليد العاملة وسدت سبل العيش في وجه العمال والقت بهم على قارعة الطريق أو في نهاية حرب مؤلمة عندما تسلخ ولاية من ولايات إحدى الدول أو تحرم من مصادرها التجارية إذ ذاك يتجلى اختلال التوازن في البلد عند توزيع الاعمال على القوات الحية التي تتطلبها ، وهكذا الحال أيضاً عندما تتعقد الحال السياسية أو الديبلوماسية وتستدعي الموارد الوطنية . وفي بعض الاحيان يقرب التقدم المادي والحركة الفكرية بين العناصر التي ظلت متباعدة متفرقة حاجزة وتوجد بينها ، فتكتسب قوة مضاعفة : ان تأسيس نقابات العمال وانشاء اتحاد الصناعات الكبرى خير مثال وأحدثه على ذلك . وفي النهاية قد شرهد أيضاً — وتلك إحدى نتائج الحرب الكبرى الاخيرة — اضطراب كبير أوقف المستأجرون والملاك وجهاً لوجه .

هنا تُثار مسألة تتطلب تدخل الحكومة . الواقع انه ما دامت العلاقات المتولدة عن تقسيم العمل تحدد من تلقاء نفسها بين الرجال فان تنظيم القوات يبدو ضرورياً لاول وهلة . ان توزيع الارباح يتم بين الشركاء بوساطة البدل والعقد وفائدة المحاصيل التي تبودلت أو الخدمات المشتركة محدودة برغبة كل فرد في الحصول عليها وبصعوبة الوصول اليها بسبب المنافسات التي تبدو . ان مهمة الادارة تقوم على ضمان حرية العلاقات الطبيعية بحمايتها

وتكلتها بإيجاد ادارات عامة للعناية بمصالح الجمهور وخدمته . فمهمة أداة العدل قائمة على حسم النزاع وتسويته ، وخطوط المواصلات تقرب بين المدن والسكان ، والنقد المشروع يعضد البدل ، والاسعاف يوجد عنصر التضامن البشري ، والنظام العسكري يشل المجهود الدفاعي في جميع انحاء البلاد ، ومصلحة الضرائب والأموال تستعين بموارد الملاك لتسد حاجة ما تتطلبه المنافع العامة من المصروفات ، والنفقات . جميع تلك الخدمات العامة تلجأ الى تعاون الأهالي الذين يدركون — ولو في شيء من الصعوبة — فائدة الخدمات التي تؤدى لكل فرد وللمجموع . إن مهمة الأدارة تقوم على ضمان حسن سير هذه المرافق طبقاً للقوانين التي تديرها .

ولكن عند ما يتعطل اختلال النظام فإن المهمة تكون أصعب : إن مبدأ التضامن بين أعضاء المجتمع الوطني لا يكون كافياً لهداية عمل السلطة والقاعدة التي اتبعت في ظروف أقل اضطراباً لا تصلح لأن تطبق على الظروف الجديدة . فينشأ عن ذلك مقاومات حادة من جانب الأفراد الذين ضحي بهم . وتهدد التضحية بالتدخل في النظام القائم . وإزاء تلك الحالة النجائية لا بد — لتهدئة الخواطر ودرء الخطر — من اتخاذ قرار بعيد عن القاعدة أو ضد القاعدة يعمل به ما دام النظام القديم لم يستتب ، أو على الأقل حتى يتبدد الخطر من إقامة نظام جديد بصفة دائمة . فيصدر قانون للاعفاء من تنفيذ الاتفاقات المتعاقد عليها ، وتتولى السلطة الادارية مصادرة النشرات المحرضة والكتب الثورية ، أو في حالة الاعتصاب ، تتخذ إجراءات تأديبية ضد موظفين بدون تبادل سابق للملفاتهم كما يحتم القانون ويستلزم . إن هذا القرار الظالم ، وإن كان وليد التفكير في حماية المصلحة العامة ، يحسب حساب القوات التي يواجهها ، والحل الذي يتبع يحدد نقطة التوازن ، وتلك النقطة ، مع عدم استقرارها وعلى الرغم من تقلباتها ، لا تلبث أن تصبح مع الوقت المطرد من مستلزمات مصالح المجموع المتضامنة .

فالعمل الحكومي يتجلى اذن في حالات نجائية وعرضية بواسطة أعمال تعسفية ظالمة وتلك الأعمال هي أسمى ما يتاح للرجل عمله اذ انها تعبر عن أقصى حد من منتهى العبقرية وقوة الارادة . ولذلك فان أعظمها منوط بالسلطة التشريعية التي تنفذ بما لها من الأولوية وبما

لها من النفوذ على السلطات الأخرى . فاليها يرجع حق تعديل القوانين القائمة ولا يمكن الاعتراض على القرارات التي تتخذها أو الطعن فيها . وهكذا الحال في ادارة الدستور وعلاقات السلطات العامة فيما بينها : كدعوة البرلمان أو تأجيله، وتأليف الوزارة أو اعتفائها. فليست هناك أية هيئة قضائية للنظر في منازعات من هذا القبيل .

على أن الاعمال التي تتطلب السرعة أو التي ليست لها أية صبغة عامة تعد من طبقة الاجراءات التنفيذية وتدخل ضمن اختصاص الحكومة ، فبعضها له علاقة بالأمن الخارجي والبعض الآخر خاص بصيانة الأمن في داخل الدولة . أما الأولى فتتجلى من النشاط الدبلوماسي والحربي والثانية هي عبارة عن اجراءات شاذة للمحافظة على النظام : كالمراسيم الخاصة باعلان الحرب والقرارات التي تخول البوليس بعض السلطات في الحالات الصحية الى غير ذلك . في هذه الظروف تترك للحكومة حرية تامة وسلطة واسعة لتنفيذها بما يكفل صيانة الدولة أي كيانها . على أن المجلس الدولي يرفض الاعتراف بها .

وبمعنى آخر ، يتحقق التضامن في بعض حالات التوازن ، بوساطة القواعد السابق تقريرها والتي يتألف من ادارتها المنتظمة وحسن تطبيقها العمل الاداري الصحيح . أن العمل الحكومي قائم على المحافظة على توازن القوات وتنظيمه كلما اختل ، وهو الشرط الأساسي لصحة الجسم الاجتماعي . فهذا العمل الحكومي يضيف ، أو عند الحاجة ، يستبدل القوة التي تجمع بين العناصر الوطنية التي يضمنها النظام الاختياري الناشيء عن العمل الاداري قوة وقتية مكتسبة من تحرير القاعدة المادية من الضغط . وإنه لا يوجد أي تشريع يستطيع أن يتذرع بالمنازعات التي يثيرها هذا العمل أو يستند إليها . ولا يوجد قانون كما لا يوجد مبدأ تشريعي يمكن تطبيقه على هذه الأقيسة ، فأية محكمة ، غير منشيعة أو متحيزة اذا كانت مطلقة الحرية تستطيع أن تفصل في هذا الموضوع . ان الحكام غير مسئولين سوى امام الرأي العام والتاريخ . فإذ قدر ألا يكون النجاح دائماً دليلاً على براعة حكمهم فان المستقبل كفيل بالحكم عليهم بغير ما تحيز أو تعسف . لقد حدث أن عزي الى أحد رؤساء الوزارات انه اتخذ اجراءات غير مشروعة لاخماد ثورة هبت في أحد المصانع الوطنية الكبرى فأجاب بأنه لن يتردد في خرق القانون لو دعت الحال الى ذلك لانقاذ الوطن . وقد

اسناء البرلمان من عباراته ودهش لها وصفق له قليلاً ولكنه خلعه بعد مضي يومين لا لما فعله ولكن للعبارات التي تفوّه بها فكانت عديمة التبصر وقلة التبصر التي أشار اليها الكاردينال دي ريتز بقوله : « لقد نزع النقاب الذي يجب أن يظل مسدولاً ليخفي كل ما يمكن أن يقال وكل ما يمكن أن يفهم من حقوق الشعب وحقوق الملوك (اقرأ كتاب الحكومات) التي لا تتفق ولا تتآلف إلاّ في الصمت » .

* * *

والحقيقة أن الاعتراف بصحة تصرفات الحكومات واقرار أعمالها لا يمكن أن يتم إلاّ بمرور الوقت وفي جوّ مشبع بروح السكينة والصمت . ان المجتمع ، وهو من مؤسسات الطبيعة ، لا يهتم — بما له من حقوق ثابتة مسلّم بها — بالقانون والأخلاق . ولكنه مع ذلك ينشىء عهداً قانونيًّا يحقق عكلاً من العدالة . ان أكبر الحكومات في التاريخ كانت وليدة حركة ثورية أو عمل جريء : (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ — ١٨ برومير من العام الثامن — ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٨ — ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ — ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ولا ننسى الأيام المظلمة التي تخللت عام ١٨١٤ وشاهدت عودة الملك داخل مركبات سكة حديد غريبة عن الأمة وكذلك أيام يوليه سنة ١٨٣٠ المشمسة) . ان هذه التواريخ التي اشتهرت في فرنسا خلال جيل بأكمله وفي عهود متقاربة لتثير في النفس ذكريات العنف والقوة التي تتولد عنها الحكومات . وانه لمن الصعب أن نرى فيها حقًّا ، حتى المشرعين الذين ، في حالات اغتصاب السلطة — جعلوا من الثورة أقدس الحقوق وأقدس الواجبات — فانهم قد أهملوا تحديد الاستعمال .

* * *

والواقع أن كل ثورة ليست سوى قيام القوات التي تحاول أن توجد توازناً جديداً . فالحالة بين النظام القديم والنظام الذي يناضل ليحل محله لا تعدو مسألة قوة . وما دامت نتيجة النزاع مشكوكاً فيها فان حظ الحق مشكوك فيه الى أن يأتي اليوم فيقرر الطرف الظافر

صحة الاجراءات التي صبق أن اتخذها خلال مدة الانتقال من حكومة الى أخرى . ولذلك فان الاعتداء على سلامة الدولة وعلى نظام الحكم يحالان على محكمة عليا تؤلف في الغالب ، أو بالأخص ، من العناصر السياسية . وفي أغلب الأحيان — كما هي الحال في فرنسا — يتولى أرفع المجلسين مكانة ، مهمة القيام بهذا الدور القضائي . وزيادة على ذلك فان هذه المحكمة تستثنى من المبادىء العمومية التي يتضمنها القانون الجنائي . فيصبح هذا المجلس مطلق التصرف والحرية في الاتهام وتقرير العقوبة ويفسر الجريمة كما يحدد العقوبة دون أن يتقيد بقواعد القانون . فليس الأمر في مثل هذه الظروف أن ينصب القاضي نفسه منصب الحكم ليسيطر على المزاعم المتعارضة أو يقمع بكل هدوء الجرائم التي لا تعود على الجسم الاجتماعي إلا بالاضطراب المحلي ، إنما الغرض هو اتخاذ اجراءات الدفاع العاجلة ضد عدو يهدد الطمأنات بالذات ، ضد عدو ملحّ وكثيراً ما يكون ذا سلطة ونفوذ ، لا ينفع معه تطبيق النصوص بحذافيرها ولا بطء الاجراءات القانونية ، ولا موقف قضاة متقاض أو قضاة يتدفعون مع احساسهم ومشاعرهم وشهواتهم .

ان القاعدة الوحشية لتوازن القوات تتغلب على مبدأ التضامن الرقيق . هذا هو تطبيق حق الدفاع المشروع .

* * *

وعلى عكس ذلك فان للتشريع الجنائي المادي صفات جديدة بالنسبة القانون الجنائي الأصلي . فليس هذا التشريع وليد رغبة في الانتقام ، أو توقيع عقوبات أو غرض دفاعي . إن مبدأ التضامن يتخلله ويخفف من شدته كما أن العقوبة لا تقاس فقط بجسامة الجرم وماديته . فهي تراعي حالة المجرم ومكانته وأغراضه ودوافعه . إن المجتمع لا يفكر فقط في الانتقام فهو يرمي الى تهذيب المذنب بتنفيذ العقوبة ويجتهد في تخويف وارهاب من يمكن أن يتشبهوا به وردعهم بتطبيق العقوبة عليهم . وينتج عن ذلك أن المجتمع يعدل متشبعاً بفكرة أن الجاني كالمجني عليه متساويان في نجيتهما له وخضوعهما لأحكامه وانه لا يجب أن يفلت من وسطه ، ويتعصبه أبداً ولأجل ما قيل على عكس ذلك يجب عليه أن يحتفظ به ويصلح

المعوج منه تلقينه شروط الحياة الاجتماعية ونظمها . ان من مصلحة المجتمع أيضاً أن يتدارك مساوىء من تناولهم العدوى وتردهم رؤية العقوبة الى سواء السبيل . وفي نفس الوقت تساعد العقوبة على تقوية الشعور الخلقي حتى في نفوس الاشراف الذين لا يتعرضون الى تهديد أو تخويف . وهكذا يتلاقى المجتمع وقوع الاضطراب الذي يعقب كل جرم وخسارة الوحدات النافعة للمجتمع بأكمله .

* * *

وهكذا ، الى جانب الميل الطبيعي في الاحتفاظ بالموازنة بين العقوبة والجريمة الناشئة عن منازعات القوات العنصرية ، يتجلى الميل الى وضع نسبة بين الجزاء ومسئولية المعتدي الشخصية . ان تخفيف النظام الجنائي لا يتم إذن بنفس الوسيلة المتبعة في الجرائم السياسية الكبرى وجرائم الحق المشترك . فالجرائم الأولى خاضعة لتشريع ذي صبغة قديمة . ان المجرمين السياسيين الذين يقدمون للمحاكم العليا لا يتمتعون بالضمانات المكفولة لأي مذنب آخر يحاكم أمام المحاكم المستقلة العادلة بموجب فريضة اتهام ونظام عقوبات مقررة . ولكن في نظير ذلك فان العقوبات التي تطبق في حالات الجرائم الثانية تختلف عند تطبيقها ـ بدافع من الشعور الطبيعي الذي يتملك الخصوم الظافرين الذين يعلمون بأنهم معرضون بدورهم لمثل تلك العقوبات في حالة هزيمتهم ـ بحذف عقوبة الاعدام وانتهاء العهد السياسي . وبعكس ذلك فان التشريع الجنائي العادي يتطور بتخفيف صبغة العقوبات بمراعاة شخصية المجرم ووضع تشريع نزيه ليس للمتنازعين أي تأثير عليه ، واهمال وجهة نظر الحرب الخاصة لاتباع وجهة نظر المجتمع العام .

***

إن الحق الذي يشيد على هذا الأساس ليس واحداً ولا متشابهاً في جميع العصور وجميع الأماكن . فعلاقات الأفراد ببعضهم ثم بالدولة تختلف بعض الاختلاف طبقاً للنظام الاجتماعي في مجتمع واحد ، وتحت تأثير الظروف الداخلية والخارجية ، يخضع الحق للتطور سواء بسرعة أو ببطء . فقد رؤي في العصور الوسطى في فرنسا ، ان طبقة الأشراف على الرغم

من ثرائها ، كانت تعفى من جميع أنواع الضرائب حتى إذا جاءت الثورة فأدخلت مبدأ دفع الضرائب بنسبة الدخل والأرباح. وها نحن أولاء الآن نعرف نظام الضرائب التدريجي . أن هذه الطرق الثلاث ظهرت تباعاً كأنها من مستلزمات العدالة وتطبيقها التدريجي . أوليس هذا مثلاً صارخاً على نسبية العدالة البشرية ؟ حقاً بأن العدالة لم تكن موجودة ولكنها قد أصبحت .

JUNE — DECEMBER 1946 يونيو — ديسمبر سنة ١٩٤٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

انشئها

الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد التاسع بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 109

Founded 1876 By Drs Y. Sarrof & F. Nimr

فهرس المجلد التاسع بعد المئة

من المقتطف

وجه

(ا)

ابني (قصيدة) ٢٠٩
أبو عثمان المازني ١٣
أدب البحر عند
العرب والفرنجة ٧٤
أعوتب ١٧٣
انتظار (قصيدة) ١٩٧
آنس آمن فيره ١٢٥
اينشتين البرت ٥٧

(ب)

بنو اسرائيل واليهود
وعلاقتهم بفلسطين ٢٨٦

(ت)

تجربة جديدة
في ألياف الراميه ٢٤٧
تحقيق في ولادة النبي ٢٤٥
التعاليم اللاهوتية ٢٤١

(ج)

جابر بن حيان والكيمياء ٢١٠

وجه

(ح)

الحرب هل هذبتنا ؟ ٢٠١
حكم الارهاب ٢٣
الحياة والذرة
(قصيدة) ٣٧

(خ)

خرافة تاريخية ٧٠
خريف (قصيدة) ٦٤
الخلوروس وعلاجه ٢٦٩

(د)

د . د . ت . ١٥٠
دعاة الانقلاب فشلهم ١٤٥

(ر)

الرأي العام الاجتماعي ٨٢

(س)

ساروجيني نايدو ٦٦
السنة القمرية شهورها ٢١٥
السيكرمتري ٢٥

وجه

(ش)

شوبنهور والطبيعة
البشرية ٢٥٧

(ص)

صحتك كيف تحفظها
٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٠
صيرورة سوريا في
التفكير السوري ٨٧

(ض)

الضويئات آخر كلمة فيها ٢٠٣
الضويئات حقيقتها ١٣٠
الضويئات عود على بدء ١٣٥
الضويئات ما هي ٨

(ع)

العقم في المرأة ١٩٣
علم الاجنة من الوجهة
الاجتماعية ٣٨
عيد الميلاد (قصة) ٢٢٢

	وجه
(ق)	
قصة	
عيد الميلاد	٢٢٢
قصيدة	
ابني	٢٠٩
انتظار	١٩٧
الحياة والذرة	٣٧
خريف	٦٤
النسيم	١٤٠
القنبلة الذرية فعلها وتأثيرها في الأهداف	١
(ك)	
الكيمياء عند العرب	٢١٠ و ٢٥٣
(ل)	
لواحق المقتطف	
موسكو ـ برلين ـ لندن: يونيو ـ فاتحة التفاحة أو جاذبية نيوتن: يوليو ـ الحماية قديماً وحديثاً: أغسطس ـ الصحيفة الثامنة: نوفمبر ـ الحق والقوة: دسمبر	
المجلس القومي	٦٣
المرأة عقلها	١٩٣
(م)	
المرأة في ظل الديمقراطية	١٠٥
المجمل في اللغة	٢٨١
مجزرة في مدرسة	٢٤٩
مكتبة المقتطف	
أثر العرب في الحضارة الأوربية	٢٣٩
الأزهر بين الماضي والحاضر	١٥٨
أقاصيص الغروب	٥٥
الحرب العالمية الثانية	
شعراً ونثراً	٣٠٢
تخليد ذكرى المرحوم	
نعمة يافث	٢٣٧
تغريدات الصباح	١٠٢
ثورة سنة ١٩١٩ —	٩٩
خليفة إبليس	٥٢
السيد أحمد الفيض أبادي	١٠١
الصرف والنحو	
بأسلوب حديث	٥٥
عبدالله فكري عصره وحياته وأدبه	٥٠
القانون الدبلوماسي	٨٨
قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة	٥٤
قصة الإنيادة	٢٣٨
كتب وشخصيات	٢٣٥
كرم على درب	٣٠٣
الحد بين الوهاب	٥١
المدخر لحياة	
الفلسفة الأخلاقية	٥٣
مقدمة في الاجتماع	٢٢٨
الفلسفية والعرفية	
رأس المئوية	٥٢
الملك ديوان شعر	١٥٥
المنهل	٥٥
موجز تاريخ الغروب	
والشروق	٣٠١
نابليون	١٦٥
نفحات في سيرة	
السيدة زينب	٢٩٧
نهضة العراق الأدبية	
في القرن التاسع عشر	٥٤
هذي هي الأغلال	١٦٩
من الأغلال	١٧٢
ميزان الحكمة	١٨٨
(ن)	
بيات الرازي	٤٢
النسيم (قصيدة)	١٤٠
نظرية النمو الذاتي	١٤١
النمو التدريجي	
تحوله	١٨٥
النمو الذاتي نظرية فيه	١٤١
نور الدين الشهيد	١١٣